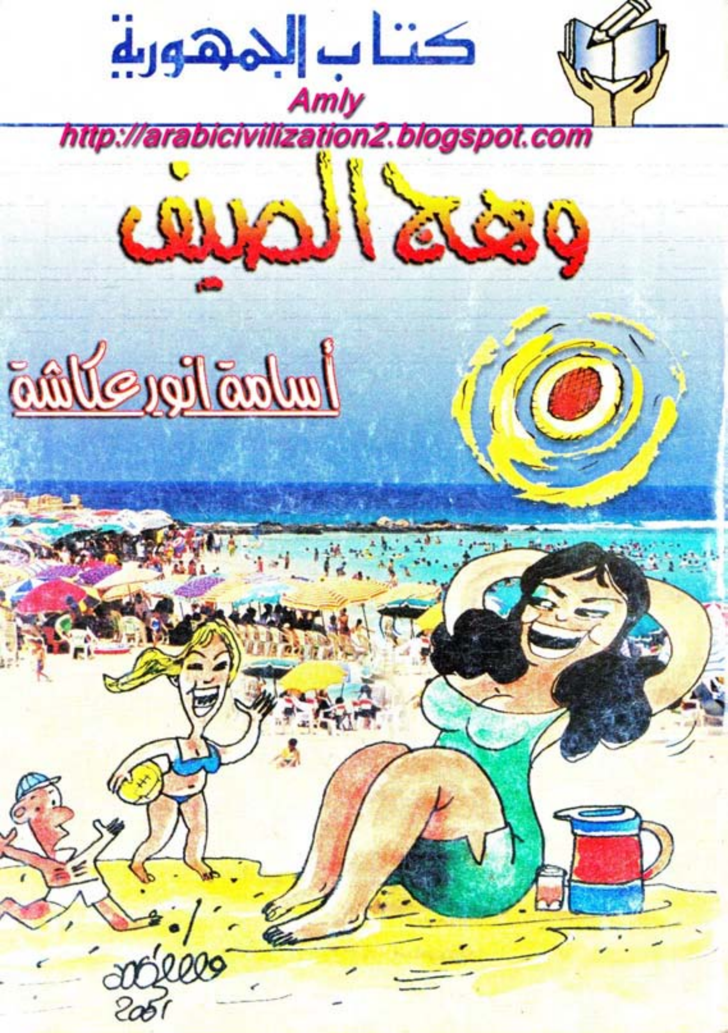

كتاب الجمهورية
Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com
وهج الصيف
أسامة أنور عكاشة

كتاب الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
سمير رجب

رئيس التحرير التنفيذى
د. فتحى عبدالفتاح

سبتمبر ٢٠٠١

شركة الاعلانات الشرقية - م دار « الجمهورية » للصحافة

كتاب الجمهورية



اسامة أنور عكاشة

الفصل الأول



الإشراف الفني :

مصطفى كامل

المتابعة :

صفوت عكاشة

نهـار الصيف أبـيض. يتمـاوج فـى الخطوط الطوليـة. حيث تبـدو المسافـة من ناصيـة شارع "داير البـحر" إلى ناصيـة شارع المتحف فـى قلب الضفـة الأخرى.. سفرة لها غرابة سفرات السندباد..

وحـين انحسـرت مسـاحات الـظل المعتـمة فـى الشـوارع الغربيـة اجتاحت وسط المدينة شـمس ما قبل الظهـيرة وداخل عربة الترام الزرقاء اكـتست الوجوه برقائق الرطوبة الشمعيـة جففها نسيم المتـوسط يتسلل من الشوارع القـصيـرة المتـعامـدة على الكورنيش وطـريق الترام... أمـا قسمـات وجه الرجل الجالس أمـامه فقد بدت له تجـسيدا حيا لمنحوتة "تحوتى" أحد آلهة مـصر القديمة.. استـغرق فـى تأملها دون أن يعنـيها بل توغل خلفـها مع أفكار رسبت فـى قاع الليلة الماضية..

لم يبدأ هو الشجار ولم يسع إليه.. فقط وجد نفسه يواجه ثورة حسن الغريب..

– رفتوك من الجورنال بلا سبب؟.. كلام فارغ.. أكيد وراء المسألة «عملة سودة»..

ماذا كان باستطاعته أن يقول لشقيقه الأكبر، وكيف يشرح له ما حدث فى قضية «الرمادى»؟ أنى لحسن الغارق فى التجارة والسوق أن يفهم فى ألعاب السياسة؟ إن الرمادى بالنسبة له اسم يراه فى الإعلانات ويسمع عنه ولكنه لا يدرك أبعاد تواجده وسيطرته..

– حسن ! المسألة أكبر كثيرا مما تدركه!..

لم يقصد مطلقا أن يجرحه أو يهينه ولكن الجملة كانت كالطلقة الطائشة التى تصيب فتقتل.. وتحولت الليلة إلى كابوس شارك فيه الجميع.. سيد المرسى.. والحاجة «جازية».. و«أبله باطة» وباقى رجال وبنات وصبيان ونسوان البيت.. ولم ينته إلا بانسحابه إلى حجرة البرج.. وكان آخر ما سمعه قبل أن يغلق الباب.. صوت صفعة تلتها صرخة كانت فى الأغلب من نصيب البنت راما..

«من ضربك يا راما؟..» سألها فى الصباح وهى تناوله كوب الشاى.. وأجابته بأنها لا تذكر.. «كثيرون!.. لم يعد فى هذا البيت من لم تستفزه راما بسلاطة لسانها حتى صفعها .. وكانت الحاجة تؤكد دائما ان البنت تتورد وتحلو وتسمن على الصفعات»..

بعدها بدقائق خاطبه «رفيق الجوينى» على الهاتف..

– كل شىء يمكن اصلاحه يا أبوحجاج.. ولابد أن تعود لعملك.. انتظرك فى البيت ظهرا.. ما صلة رفيق بما حدث؟..

رفيق جاوره فى «تخته» واحدة طوال سنوات الاعدادى والثانوى.. أحبه أكثر من أشقائه ولم يستطع اختلاف المسارات أن يضعف ما بينهما.. ظلا متلاصقين حتى بعد أن دخل رفيق كلية التجارة والتحق هو بالحقوق.. ثم رحل إلى القاهرة وراء حلم الصحافة وتهاويم المجد المأمول والشهرة الآتية لاريب فيها.. وبقى رفيق ليدير أعمال «شركة الجوينى» المزدهرة..

يعرف يوسف الطريق حتى ليمشيه مغمض العينين.. من محطة ترام جليم إلى الشارع الموازى بمجموعة السرايات و«الفيللات» الأنيقة المجاورة والمواجهة لقصر الأميرة «فاطمة» الذى أصبح متحفا لمجوهرات أسرة محمد على الكبير.. وعند الناحية التالية العمارة الخمسينية ذات الطلاء الأصفر وحديد الشرفات وضلف «الشيش» باللون الاخضر.. وجانبها الغربى تنعكس عليه شمس ما بعد الظهيرة «زمان فى المشوار اليومى خلال الاجازة الصيفية..»

كان قلبه يخفق بشدة.. «معقولة؟.. ما الذى أرجع ذكريات السنين الخوالى حتى تحرك ما خمد؟.. لابد من مثير ما.. آه .. أدرك بعد لحظة أنه عطرها.. يعبق جو المصعد.. لابد انها سبقته بدقائق.. ولكن.. كيف؟ إنه العطر القديم.. أتراها.. ؟.. أو تراها؟»

لم تكن هناك فسحة لاستطرادات أخرى.. فتح الباب.. وسمع صوتها..

قال رفيق وهو يسحبه من معصمه...

– مفاجأة! ما رأيك أن ترى من لم تره منذ عشر سنوات؟..

المطر فى عز الصيف !

رائحة المطر وبخار الماء فى نوة «الفيضة الكبيرة».. وعطن كامن فى نسيج «سويتر» من الوتر بروف مفرود على رأسيهما وهما يحاولان أن يحتميا

بمدخل عمارة فى شارع فؤاد.. هل تختلط الدموع بقطرات المطر حقا؟..
الدموع ملحية الطعم.. والمطر لا طعم له..
– رفيق وعدنى بأن هذه الزيجة لن تتم إلا على جثته..
– رفيق فى ثانية جامعة مثلك.. ولا يستطيع أن يعارض أبا مثل أبى.. على الأقل لن يستطيع أن يجد البديل الذى ينقذ أبى من انهيار أعماله.. وقد جاء «العريس»على فرس النجدة..
– وهل أقف عاجزا وأراك تضيعين منى؟..
خطفت قبلة على خده منسلة بسرعة من تحت «السويتر» المظلة..
يهتف فى أثرها: انتظرى حتى ينقطع المطر..
تلوح له وهى تعبر إلى الرصيف الآخر حيث توقفت سيارة «التاكسى»..
ثم تضم كفيها وتهتف: لن أنساك!...
ويتحول حفيف الأمطار إلى هدير.. وتغيب السيارة خلف ستار البخار والرزاز..

فى الشرفة كان الصيف حاضرا بقوة.. ولكن يوسف ظل يتنسم رائحة المطر.. وتقلصت أمعاؤه مع ألم خفيف فى المعدة !. نفس أعراض اللقاءات القديمة قبل إطلالتها..
من الظلال داخل حجرة الصالون الباردة.. جاءت.. يتبعها طفل فى السابعة..
.. له عيناها وشفتاها المكتنزتان.. واستدارة الجبين عند منبت الشعر.. وما بقى قد يكون من ملامح الرجل الآخر.. ذاك الذى كرهته دون أن تراه..! أيكون..؟
– أهلا يوسف !..

يدها الممدودة تتقوس مسترخية فى توق تعوده زمنا ليلقفها بأصابعه..
– الحمد لله على السلامة يا أم..؟ «تسحب يدها وتعلو خديها حمرة خاطفة وتشحب أرنبة أنفها».
– هانى.. سلم على عمك يا هانى!..
يصافحه الطفل بسرعة ثم ينفلت خارجا قبل أن يميل عليه ويقبل جبينه..
خلت الشرفة إلا منهما.. ولم تبد منها أى بادرة.. كأنها كانت تعد اللحظة.. وقبل أن يجد طرفا لخيط يجذبه داخل رفيق.. وهو يتحدث فى المحمول.. «عادته التى لم يستطع تغييرها.. بصوت جهير يتحدث عن أدق اسراره.. أمامه هو بالذات.. اتهمه مرة بأنه يتعمد أن يستعرض عليه.. ولكنه قال مدافعا بأنه فى حضوره يحس وكأنه وحده.. ولم يفهم بعدها قصده من العبارة.. يذمه.. أو يطربه.. هكذا كان رفيق دائما.. يقول فى كثير من الأحيان ما لا يفهمه هو نفسه»..
.. ابتعد خطوات بمحموله.. أدارت ظهرها نصف دورة وكأنها تطل على حديقة الفيلا المجاورة وعبرت خصلة شعرها مرمى النسيم المتلكىء على حافة الظهيرة.. نفس المسكر القديم «فيرست من آرابل!.. هى أخبرته وحفظ الاسم.. ولم ينسه».. ردده الآن كتلميذ يتذكر أبياتا من قصيدة مقررة..
– مازلت تضعين الفيرست؟
بلحظ شرعت أهدابه كما تشرئب فرس النبى.. «صلى صلى وأنا اسيبك.. ترديدة الطفولة حين تقع فى أسرهم تلك الجرادة الخضراء..»..
رنت.. ثم همست:
– لم أغيره أبدا..

عانقته الجملة.. وأراحت رأسها على صدره.. وكأنها دعوة لاستحضار العنفوان اقترب لينظر بجوارها الى الحديقة.. ويهمس بدافع قهرى لم يدققه..

– عشر سنوات.. ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟..

انتبهت لنداء طفل لم يسمعه.. وانثنت خارجة بسرعة وكأنها لم تسمعه..

«كانت الغصة زمان تدفع بالدموع إلى عينيه ويحبسها فيؤلمه حلقه.. أما الآن؟»

كان رفيق قد انهى المكالمة.. وكان يعرف فيم يفكر صاحبه مستترا بالنظرة الغائمة..

– عادت بالأمس من الرياض وبقى هو.. تريد الطلاق !

وقبل ان يعلن أو يعبر عن دهشة الاستنكار المفتعلة.. واصل رفيق..

– المهم الآن!.. غدا أى يوم من أيام ربنا؟..

– أظنه الخميس؟

– سأمر عليك عند الغروب واصحبك معى.. سنحضر حفل عيد ميلاد أحد أولاد «الرمادى» الكبير.. وهناك سننهى المشكلة من جذورها.. وقبل ان تنتهى الليلة ستعود لصحيفتك !

– أنا لن أركع لكائن من كان..

– كف عن هرائك.. لا احد يريد منك ان تركع أو تسجد.. كل المطلوب منك أن تصحبنى غدا إلى مارينا.. ودع كل شيء لى!

.. تلك وسيلته الدائمة فى السيطرة على مسارات الأمور حوله.. «هو عمدة أو ابن بلد بالمعنى الفولكلورى.. أبو احمدات اسكندرانى.. يستمتع بممارسة الابوة على الجميع.. وله قدرة فائقة على بناء الصداقات

والعلاقات بسرعة البرق.. أما موهبته الكبرى فهى تناقضه مع نفسه بدرجة تثير القلق لدى الجميع.. يبدو احيانا كريما إلى حد التبذير والسفه ثم ينقلب بخيلا شحيحا فى لحظة.. يقع فى الحب بمعدلات قياسية ويبدو عاشقا رومانسيا يشفه الوجد ساعة فيبكى كالأطفال ويصوم عن الأكل ويعتكف كالراهب فى صومعته بكنج مريوط ولا تمضى ايام حتى ينسى القصة برمتها، ولا يبدو مهتما بأى امرأة على وجه الأرض.. وحين تزوج لاول مرة وهو فى الكلية انفصل بالطلاق بعد اقل من عام.. ثم كرر التجربة ثلاث مرات وله من كل مرة طفل أو طفلة..»

– طالع لخالى طلعت.. والولد لخاله.. وخالى قبطان كما تعرف.. له فى كل ميناء امرأة.. وله أبناء وبنات بعدد شعر رأسه.. تعرف أنه قد دون أسماءهم فى كشكول حسب البلد واسم الام.. ولم يستطع حتى اليوم ان يحفظهم!

بغيظ لا يدرى يوسف سببه الحقيقى لان الموضوع رحلة مارينا وحفلة الرمادى كان يمكن ان يسمعه فى التليفون بلا ضرورة للمشوار من غرب البلد لشرقها..

– أردت أن افاجئك يا سيد الحمير.. تحضر فتجدها أمامك.. وأستمتع أنا برؤية جنابك شاحبا مرتجفا توشك ان تفعلها فى لباسك!

– لم تتغير يا رفيق.. كأن الزمن توقف عندها.. ولم يتحرك لحظة..

– سمعت همستك وأنا اتحدث فى المحمول..

وراح يقلد همسته ساخرا عشر سنوات ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟.. لم يستطع ان يفسر أبدا «حياد» رفيق.. وكأن.. «رحاب» ليست أخته..

قبل أن يغيب التاكسى وتواريه الامطار.. جرى خلفه.. رأى رأسها يستدير ناظرا من الزجاج الخلفى.. عليه تنداح قطرات تحفر مجرى للدمع فى عيون يغسلها ماء ملحى.. يذيب الضباب.. ثم اختلط البرتقالى بالأسود بالرمادى.. وعاد إلى حجرة البرج.. يدفن وجهه فى وسادة رطبة.. ويبكى بين يدى فيروز: يا كتب اسمك يا حبيبى عالحور العتيق.. تكتب اسمى يا حبيبى عارمل الطريق.. بكره بتشتى الدنى عالقصص لمجرحة.. يبقى اسمك يا حبيبى.. واسمى بينمحى..

.. وليس فى الاسكندرية حور عتيق.. لكن شاطئها لا تنقصه الرمال..

أما الشمس فقد قطعت مسافة أخرى من رحلتها المكررة.. وهى تواجهه من شباك عربة الترام.. لابد أن يسوى الأمر مع حسن الغريب..

لم يحب امرءا فى دنياه كما احب حسن الغريب!.. حسن ليس مجرد الأخ الاكبر وعائل الأسرة.. حسن أبوه..

يذكر يوسف أباه «طشاشا».. وربما كانت الملامح العالقة بذاكرته منقولة من الصورة الكبيرة المعلقة فى حجرة «الجلوس» لعجوز يعتمر عمامة ويرتدى «بنش» وعلى كتفه «لاسة» وتحت شارب كث تفتر الشفاة عن شبه ابتسامة تتنافر بفجاجة مع التعبير العابس للعينين.. لا شىء فيه.. يشبه أيا منهم.. ولكن - تقول الحاجة جازية - لو ان الحاج خليل أزال شاربه لصار هو - يوسف - نسخة تطابقه !

وخليل عبدالبارى الشفقى تاجر المانيفاتورة فى العطارين كان له مزاج غريب فى تسمية ابنائه.. حسن الغريب.. وسيد المرسى.. وعلى الاحسن.. ثم يوسف الاحلى.. كتب الثلاثة الأول بأسمائهم المركبة فى شهادات ميلادهم.. وحين جاء يوسف كانت التعليمات الرسمية تمنع

الأسماء المزدوجة.. وكان هذا من حسن حظ آخر العنقود.. فلقب «الاحلى» كان كفيلا بأن يسبب له مضايقات لا أول لها ولا آخر.. وكان إلى عهد قريب يتشاجر مع كل من يناديه به ولو على سبيل المزاح!

- ما الذى رماك على يا أحلى ؟..

بلعها يوسف فالرجل غاضب منذ ليلة الأمس..

- حقك على يا غريب !

.. و«برطم» حسن بما يعنى أنه ليس غاضبا من كلمة قالها يوسف.. ولكنه حزين لاستهتاره فى عمله لدرجة أن يعرض نفسه للفصل والصياعة..

- شوف يابن أمى وابويا.. المسألة ليست اعالة أو أكل عيش.. فهذه التجارة مازالت قادرة على ان تواصل الانفاق عليك وعلى عشرة غيرك! لكنها مسألة وضع وحيثية.. كنت أفتخر بك وأتباهى وسط تجار الشارع.. ويوم كتبوا اسمك فى الجورنال لأول مرة اشتريت كل النسخ من المتعهد ووزعتها ومعها «الشربات» ثم تأتى لى فجأة لتقول.. رفتونى.. لا ياشاطر.. تبقى ولد خسران ومستهتر.. «.. يحكى الحكاية وامره لله.. وسواء فهم الغريب أو لم يفهم.. سينتهى الامر..»... وعبدالرحمن الرمادى اسم «يرج» الدنيا.. لكن الصورة مضببة فلأسباب يجهلها كان الرجل يكره التصوير ولا يحب أن تنشر له أى صورة فى اى صحيفة حتى وإن كانت صورة جماعية مع آخرين فى أى مناسبة!.. وحين ذهب يوسف ومعه مصور الصحيفة الى تلك الارض الخضراء الانيقة فى المنتجع الفاخر حيث يمارس كبار السوق ومليارديراته رياضة الجولف كان الارتطام..

- موضوعى كان تحقيقا عن الهوايات الباهظة لارباب الشريحة الجديدة..

هؤلاء الذين يعتلون تلال الثروات الفادحة ويمكن للواحد منهم ان ينفق ببذخ اجرامى على القطط والكلاب.. والسيجار الهافانا.. والعشاء الوافد يوميا من «الماكسيم» بطائرة خاصة! لم أكن اسعى خلف الرمادى بصفة خاصة ولكنى وجدته هناك! وطلبت من المصور أن يلتقط صورته من بعيد وهو يلعب الجولف وأحاول أنا أن اقترب منه وأحصل على أى كلام! هاج الرجل وثار وحطم الكاميرا وأوسع حراسه مصورى المسكين ضربا.. ونالنى بدورى جانبا من الغضب فمزقوا كم السترة وحشوا به فمى وسحلونى على الارض حتى الطريق العام.. وفى المستشفى قالوا للمصور ان ثلاثة من ضلوعه قد كسرت بالاضافة الى ثنايا اسنانه!.. ماذا افعل يا حسن يا غريب؟.. هل أقبل الإهانة وأحمد الله على النجاة واكفى على الخبر ماجور؟ إذا لاحتقرت نفسى الى الابد ومات التوق الصحفى بداخلى.. فهل ترضاها لى؟

عبس حسن وقد هاله ما سمعه.. ثم هرش ذقنه كعادته حين يفكر فى أمر يحيره.. وانتظره يوسف حتى يصل الى الغاية التى كان واثقا من وصوله اليها..

– لو منك لضربته فى ساعتها..

– لو استطعت.. لقد كان حوله عشرة غيلان يا حسن.. الفحل منهم يضرب عشرة من عينتى فى نفس اللحظة!..

.. ولأول مرة لاحت ابتسامة مترددة على وجه الغريب..

– وما عاد بيدك إلا أن تنتقم لزميلك ولك بالسلاح الذى تملكه؟..

– كتبت يا بوعلى.. حتة دين مقال! مزقت فيه عرض أهله.. وقلت كل ما أعرفه عن اصله وفصله.. لم أذكر اسمه الحقيقى طبعا وإلا وقعت فى

المحظور وكان نصيبى حكما يخرب بيتى وبيت الجريدة.. ولكنى اطلقت عليه «النص نص».. نص ابيض ونص اسود.. ووصفته كأنى ارسمه.. حتى لثغته العجيبة التى ينطق فيها الحروف المنقوطة بلا نقط! باختصار لم يبق قارىء واحد من قراء الجريدة لم يتعرف عليه.. وبعد صدورها بساعات قامت القيامة التى ألقتنى فى حضنك لتكمل على بغضبك واتهامك لى بالاستهتار والبطر بلقمة العيش.. كتر خيرك يا بوعلى!..

.. هذا الرجل الضخم.. الخشن.. الشرانى.. حسن الغريب خليل الشفقى.. يتحول إلى طفل منكس الرأس خجلا أمام عتاب شقيقه الاصغر.. ويهمس منكسرا:

– لمَ لم تحك لى الحقيقة من البداية ؟!.. تعالى لحضنى يا ولد

.. تغرورق عيناه وتنتابه حالة الوجد القديمة.. سيترك المحل لصبيانه بعد قليل ويهرع إلى أقرب جامع أو زاوية.. يستلم العامود ويبكى..

تقول الأم جازية..

«حسن ضيعته طيبته وقلبه الخفيف.. فصار افقر اشقائه رغم أن تجارة الأب مازالت تحت يده.. الفضل فى بقائها يرجع لسيد المرسى.. هو عقل حسن ودليله ومرشده.. ولكن سيد لا يملك «حظ» حسن مع الناس الذين يحبونه.. تهتف «راما»: يحبونه «ويستكردونه».. تنهرها ابلة «باطة» لان حسن عمره ما كان «كرودیا».. فتشاكسها راما مؤكدة ان ديون حسن تغرق «التجارة» ولولا سيد لانهارت.. ويكفى أن على الاحسن قد خرج من البيت والمحل وأصر على تقاضى نصيبه «ناشف».. وها هو الآن وقد أصبح مليونيرا أو يكاد...»

أربعة أشقاء كفصول السنة.. لا يشبه أحدها الآخر وأن تلاه أو سبقه..

.. ترى.. اى فصل فيهم انت يا أحلى؟..
لماذا يوسف الاحلى يـا عم خليل يا شـفـقى؟.. يوسف لم يكن اكـثـرهم وسـامة ولا اجـملهم طلعة.. «بـل كنت حين ولدت يا وله!.. تقـول الام وتؤيدها باطة: يخـرب بيت جمـالك وانت فى اللفة!.. أى عـيون.. وأى خدود.. أم ترانا اسميناك يوسف بدون مناسبة ؟!
وتهوى راما بلســـانهـا لتهـــدم المعبد: ســــــبحـانه.. مسخك على كبر وسواك أقبح من قبارى الأعور..
«فشرتى».. قالتها «باطة» بلا مزاج غاضبة.. «يوسف».. كان ومازال أوسم رجال الحى..
ما الذى تفعـله هنا فى داير البحر يابن الشفـقى؟.. لماذا لم تظل فى القاهرة وتقاتل من اجل قضيتك؟..
أى قـضـــيـة يا وســـــواسى الأبله؟.. ومـن أقـــــــاتل فى ســـبيلها؟.. الرمـــــادى ام رئيس التحـــرير؟..
ام رئيس المؤسسـة الذى اصـــــدر قرار فـصلى؟.. يا عم صلى! ذهبت الى النقيب.. واعضـاء المجلس.. قالوا ان هناك بلاغا قدم للشـرطة يتهمنى بتـحطيم «هـواية» باب «الشـبح سـتـمـائـة الســـوداء» وســــرقـة محـتويات تخص البـاشا!.. ولابد ان ينتظروا حتى ينتـهى التحـقيق ويتم التصرف فى البلاغ.. فهمت يا باشا؟.. انا فهمت.. الحل فى يد «الباشا».. ورفيق «لقطها» وهى طايرة ومن اول لحظة.. والغد هو الموعد.. اليس الغد بقريب؟ مساء الخير..

■ الفصل الثانى



دائرة حول المكان وزمنه:

مساء الخير يا ربيع يا ابن الشتاء وحفيد الخريف وتوأم الصيف الطويل!
حين رأى عبدالبارى الشفق الملاك المكلف بقبض الارواح.. لم يره معه أحد من المتحلقين حول فراشه.. وحده لمحه رغم نظره الكليل.. وابتسم فى حسرة ساخرة.. وهو يومئ برأسه ويهتف به: اجئت يا ملعون؟..

مد يده وقبضت أصابعه على رسغى..

- أنا ماشى يا خليل!.. «ويواصل خليل حكايته التى رواها عشرات المرات..»..

حين خرج السر الالهى وبرد الجسد.. نبتت فى المسام المصغرة ازهار بنفسجية على شكل المحار.. غطت الجسد كله.. وعلى حافة النافذة حط طائر غريب.. لم يأتى من مكان.. فالشباك مغلق والباب.. وانا وحدى اجلس بجوار الجسد المزهر وانا ارتل القرآن من المصحف مفتوح.. وكان يسمعنى.. ووجهه «الملتهم» يشى برحلة تعبر من الشرق مع الشمس فى زورق ذهبى!..

وتحدث الطائر الغريب..

الرحلة طيبة يا خليل.. والريح رخاء.. والقواقع تركب الامواج وتلفظ لؤلؤا منشورا يعلو الزبد الألماسى.. تزوج يا خليل من جازية بنت عمك وأولدها حسن الغريب.. وسيد المرسى.. وعلى الأحسن.. ويوسف الأحلى.. وعطيات التى ستدعونها «باطة» ورومانة تدللونها بـ «راما»..

وصية راحل بعد رحيله! حدثت كثيرا من بيوت داير البحر.. وعد أصحابها من الأولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!..

حسن الغريب.. الطيب.. يقسم غير حانث انه حين نزل الى «التربة» مع جثمان ابيه خليل.. رأى جسد الجد عبدالبارى سليما ترقشه ازهار البنفسج..

«هز سيد المرسى كتفيه حين سأله يوسف.. نعم نزلت مع حسن وعلى.. وعن نفسى لم انظر نحو كفن جدك!.. ربما.. سبحانه قادر على كل شئ.. أما على الاحسن فقد شخر هازئا وهو يشيح بيده.. دماغنا يا سى يوسف.. دا كلام معرسين..»

.. على الاحسن مكبر دماغه ولا يحب مجالس السمر وتبادل الذكريات.. وتقول «ستى سوريا».. عميدة نساء أسرة الشفقى.. خمس سنوات بعد المائة على الاقل وتقفز فى مشيتها كأبى فصادة.. وتكره على كراهة التحريم: ولد منجوس.. اختطفه «المارد» ذات غروب يوم «نوة» شتوية وخاض به إلى الاعماق ثم استبدله.. لم يعد على الاحسن مطلقا.. ذهب الى غير رجعة.. وجاء بدله «على» الانحس كما تسميه..

لا يدور الزمن ولا تتحرك الشمس.. وذاكرة الـ الشفقى تتحرك فى

دائرة ولا تعرف بداية ولا تصل لنقطة تغلقها.. الكل يحلمون اثناء نومهم وخلال يقظتهم.. «أحلى الاحلام.. أحلام القيالة- كما تؤكد الحاجة جازية..» وأحلامهم تفسر وتتحقق.. وكأنهم موهوبون جميعا لأيام أفقية تمر بعرض البحر كالسفن البعيدة.. ويوسف كان طفلا حين رأى جده بعد موته بعشرين عاما يلتف بالبردة الخضراء ويزيد من فمه وهو يتطوح على ظهر الفرس فى زفة «الخليفة غروب الليلة الكبيرة لمولد ابى العباس المرسى»..

«كيف يمكن هذا يابوحجاج؟..»

- لا يمكن أعرف.. ولكنى رأيته.. شبه صورة «الميه» الخالق الناطق.

وحين كبر ودخل المدارس وقرأ كثيرا كان يروى نفس القصة مؤكدا انها مجرد «حلم».. فى ليلة سابغة السواد فى خريف عام مضى.. رأى فى المنام المظاهرات التى خرجت لتستقبل سعد زغلول باشا بعد عودته من المنفى.. وسيد درويش البحر يموت فى نفس اليوم.

- أحلام صحفى مثقف!..

خط الشفق التالى

ينطلق الطريق بعد العجمى وابوتلات وابويوسف ممتدا حتى مرسى مطروح.. وخط الشمال الغربى يرافق الصحراء والبحر.. تتناثر على شطآنه تلك القرى البيضاء تفوح منها روائح العطور و«فيشار الذرة» وشكائر الهامبورجر والخبز الفرنسى الطازج.. وفى حضن الغرب تسقط شمس نهار آخر لتغيب فى مساحات الرماد المخضب بحمرة شفقية حين شارفت سيارة رفيق مدخل القرية..

تقريبا عند سيارة.. «فيرارى» مكشوفة وقف ثلاثة شبان بملابس البحر وعلى ظهر حقيبة السيارة صندوق من البيرة المستوردة..
وجوههم لوحتها الشمس وملوحة البحر والنسيم المشبع باليود.. والتمعت فى اطراف انوفهم سمرة ترددت ظلالها فى الآذان.. وتقشرت فى مواضع من الخدين.. بينما تلبدت خصلات الشعر فى رؤسهم وبدت فى مفارقها رمال دقيقة رفيعة تشى بانهم لم يغتسلو بالمياه الحلوة بعد حمام البحر..
لوح لهم رفيق فقذف له احدهم بعلبة بيرة من صندوق الثلج سقطت فى حجر يوسف!
- تعرفهم؟
- وستعرفهم بدورك بعد ساعتين حين يبدلون ثياب البحر وتبدأ الحفلة!
- تبدأ الحفلة بعد ساعتين ونصل من الآن؟..
ماذا سنفعل..
- سنقابل عبدالرحمن الرمادى يا ابنى.. «الآن» هو الفرصة الوحيدة لنلقاه «على رواقه»..
- أو يعرف اننا فى طريقنا اليه؟..
لم يجب رفيق على السؤال.. وانشغل بركن السيارة..
كانت الشمس قد غرقت تماما.. وأخلى الشفق طريق النهار لغسق لم يستطع ان يفرض سطوته فقد مزقته منذ بدايته تلك الاضواء التى تناثرت فى الشوارع القرية.. ومداخل الفيلات.. والشاليهات وحول حمامات السباحة.. وانبعثت من السيارات ومحلات السوق ومن

داخل البنايات موسيقى «الراب والبوب» واغانى جاكسون ومادونا والسبايسى جيرلز.. وبعض اغنيات مقتحمة لمغنيين مصريين لم يستطع يوسف أبدا ان يميز بينهم او يعلق الاسم الصحيح على صورة صاحبه.. وربما كانت فيلا الرمادى الكبير هى اكبر فيلات القرية.. وربما لم تكن.. ولكن الحديقة كانت بلا شك اجمل الحدائق واكبرها.. الوان من المصابيح والبالونات وانواع من أوراق وكرات واشكال الزينة لم يرد مثلها فيلا تسكن الشجيرات وتنبت من احواض الورود.. و«برجولات» ومظلات تتناثر حول حوض سباحة مرسوم بتصميم سريالى لافت للانتباه.. وموائد فى كل مكان.. ومجموعة كبيرة من البشر يتحركون فى كافة الارجاء فى سرعة وصمت.. وهناك منصات للتصوير والصواريخ وماكينات الليزر.
خرج صوته مبحوحا لجفاف طارئ فى حلقه.. «أهى حلفة عيد ميلاد أم الاحتفال السنوى بتوزيع جوائز الأوسكار؟..».
- اتلهى!.. إنك لم تر شيئا بعد..
عموما.. هو لم يأتى ليتفرج أو ينبهر.. وها قد حان ما جاء لأجله..
سار على ارضية كالمرايا «لابد انه ذلك السيراميك الفاخر الذى يرى اعلانه فى التليفزيون حيث تتأوه اعطاف النجمة الفاتنة وهى تناجى زميلها العالمى العجوز فيرد عليها بلكنته الآسرة..»
.. قادته المرايا يسبقه عليها بخطوة رفيق الى شرفة خلفية مظلمة بتكعيبة كروم كثيفة تتخلل افرعها عناقيد من مصابيح مضاء بالوان شتى من الاحمر والاخضر والازرق وكان الرجل نفسه هناك.. يدخن نرجيلة فاخرة من الكريستال الخالص.. يعبق دخانها فى المكان معطرا شهيا.

«ما الذى أتى بك إلى وكر الافعوان؟..»
تقدم رفيق الذى حسن له الرمادى ولقيه بابتسامة مرحبة! لم ينظر نحوه هو مطلقا.. بينما التفت اليه رفيق.. وبإشارة آمرة فاجأته.. هتف:
- اقترب وصالح الباشا يا يوسف!!
للحظات لم يدرك مغزى فعل الامر.. «صالح الباشا»! فرفيق يعرفه جيدا.. ويعرف أنه لن يفرط فى عزة نفسه ولن يرضى بالخنوع.. رمقه مستفهما فى تحفز.. غمز له رفيق بركن عينه وهو يغرز أظافره فى لحم عضده ويهمس من بين أسنانه.. «اعتذر.. بوس إيده».. وفى نفس اللحظة مد الرمادى يده وكأه سمع ما همس به رفيق..
انحنى فقط بما يسمح له بالتقاط كف الرجل.. تجاهل فعل الأمر وحركة التحريض وصمت التأهب.. وصافح اليد المقلوبة المسترخية «فعمت أنفه رائحة عطر نفاذه تخالطها حمضة عرق لم تفلح فى اخفائها أى طيوب مزيلة».. رمقه الرمادى بعينين ناعستين.. ومبعدا مبسم النارجيلة عن شفتيه.. مرسلا مخروط الدخان من فتحتى أنفه.. وهتف بصوته الذى زأر كفرقعة رعد شتوى يوم ملعب الجولف.. وتقطع الآن فى همسة مسترخية..
- تأدبت بما يكفى وعرفت أن الله حق؟..
سارع رفيق بحماس:
- يوسف شاب طيب وجدع.. أقسم لى على المصحف الشريف أنه لم يكتب مقاله وهو فى حالة طبيعية.. هى «وزة» شيطان يا باشا.. ومثلك جدير بالعفو والتجاوز عن الطيش!

- اسمع منه يا بن الجوينى!
فى عينه السوداوتين المحاطتين بهالتين أكثر سوادا.. وتحت حاجبيه الكثيفتين المشعتين اللتين تبدوان كما لو كانتا فردتى شارب «مبروم».. برق ذلك الوميض.. يضىء بسمة تفترش القسمات مليئة بالتربص والتحريض.. «الرجل يريدك أن تطاوع كبرياءك وتمتطى فرسك ليفشل وساطة رفيق.. ولابد أن تفوت عيه غرضه»..
- تملكتنى الحماقة يومها فلم أفكر فى العواقب.. وأعترف بخطئى!
..«اللعنة على ما تدعيه من ذكاء.. الحماقة هى ما تورطت فيه اللحظة.. أفسدت بطولتك المؤقتة وحولتها إلى مهزلة..» ورفيق يبتسم ملء شدقيه:
- ألم أقل لك أن يوسف لا يمكن أن يعنى ما كتبه؟!..
«الله يا بن الشفقى!.. هنيئا لك بما سيملأ جيوبك من تراب!»
- نطمع فى أن تشمله بعفوك وتأمر الناس فى الجريدة ليعيدوه إلى عمله..
- يفعل ربنا ما فيه الخير.. اذهبا واستمتعا بالحفلة..
......
اصطبغ المساء بألوان طيفية تتحلل وتنفصل بلا منشور.. وتصاعد إيقاع الليلة ليثير فى الغبش المعتم عند الحواف سيولة تنسكب فى الضلال المختبئة عند أركان الحديقة.. وفى المساحة التى تلى الرمال المضادة بمصابيح الحفل.. عند مرمى أمواج المد الليلى..
«الشاطئ الخاص» مسور بقضبان مزركشة ولكنها حديدية صارمة.. خارجها تجمعت وجوه يعلوها فضول الفرجة وعيون يلمع فيها

فـضـول ينتظر الوليـمـة.. ومنذ بدأت أصـوات الموسـيـقى المسـجلة وأغنيات الموجة الجديدة.. انسحب صوت البحر إلى خلفية لا تبحث عنهـا الآذان.. وتلونت فى الأرجاء بداية المعـزوفة المرئيـة لليلة تتكون بإرادة فاجرة ترسم الجنون..

.. همس له رفيق..

– ألم تدع من قبل ليلة مثلها؟..

– بلى.. دعيت لحـفلات فنانين.. ورجال من الصفـوة.. وأعرف عن هذه الليالى أكثر مما تتصور..

– انسى!.. كل مـا رأيتـه طـوال عـمـرك كـوم.. والليلة كـوم آخـر.. سـتكون أحلى ليلة فى حـياتـك يميل رفـيق دائمـا لصيـغ المبالغـة.. واستـخدام أفـعل التفـضيل.. فـالطبيب الذى يشـير به هو «أحـسن» طبيب فى مـصر! والسائق الذى يـقود سيارتـه هو «أشطر» سائق فى البلد.. وطبعا أى فـتاة يعرفها هى «أجمل» فـتاة فى العالم.. وفى كل الأحوال يتمخض رأيه عن حقيقة مناقضة تماما..

– اسرح فى براح الليلة كـما يحلو لك ولا تبحث عنى.. عند الفـجر وقبل الشروق سأجدك لنعود..

– ولكنى لا أعرف أحـدا فى هذه اللجة.. سأغرق وحـدى فى العزلة والملل..

.. لم يسمعـه رفيق فقبل أن يكمل جملة واحدة كـان قد ذاب كفص الملح!..

لا فـواصل ولا حـدود بين الصـالات والأبهـاء والشـرفـات وممرات الحديقة ومـا حول حوض السباحة.. ومـوائد الشراب متناثرة فى كل

ركن والسـقاة الذين ارتدوا زيا خـاصا مميزا يـتحركـون فى كل مكان كلات «ربوت» مبرمـجة.. وحركته المتلكئة تقـوده إلى مساحات ملل تنذر برغبة قريبة فى الفرار.. ربما قبل أن تتفتح المسام لتتفجر منها تلك البللورات وتتناثر فى تراكم مطرد عبد مسارب وأبواب لا يطرقها إلا المدعوون..

فى ركن عند المـدخل.. وضـعت بطاقـات فـاخـرة.. تناول إحـداها وقرأها.. برنامج الحفل وقائمة الطعام.. يا أولاد الزناة!

مرة.. فى سنوات طـفولتى الأولى كان يعبث فى «الكرار» حين عـثر على مـجلة نشرت قـائمـة بطعام المائدة الملـكية فى الاحـتفـال بزواج فاروق وناريمان!.. لا تعد شيئا بجوار هذا الفجر..»

.. سيتحدث طويلا فى سنوات كثيـرة قادمة عن تلك القائمة وسيظل يروى العـجائب لأبنـاء وأحفـاد سينـجبـهم يومـا سيـصف لهم لحم الطواويس وكبـد الأوز المدخن وبيض الاستـرجون القـزوينى ومائدة صنف من ابتكار أشهر المطاعم الباريسيـة منقولة برحلة طيران خاصة إلى الإسكندرية بكميـات سيلقى نصـفهـا فى أكيـاس الفضـلات.. وعشـرات الصناديق المليئـة بالنبيـذ الفرنسى والوسـيكى الأسكتلندى تراق كلها على شرف الأنسـة حفيدة عبدالرحـمن الرمادى فى ذكرى مولدها العشرين..

دائرة الحزن والمجون

أعرف تـلك الوخزة! تعـودت عليهـا ألفتـها ولكننى أبدا لم أتـعود الألـم الحاد الذى يصحبها فى لحظة اكتمالها.. عنفوانها يلسع جانبى صدغيـه ويفرزان ما يشبـه إبرة من الصلب من الأيسر إلى الأيمن..

فتمزق محرقة لاهبة تشغل رأسه ككرة النار.. رأى «الحاوى» يفعلها ذات مرة فى «داير البحر».. نفخ خذيه وأمسك بإبرة حادة رفعية وضعها فى نار القوالح المشتعلة حتى احمرت ثم دفعها إلى خده الأيسر.. فمرت لتخرج من الخد الأيمن دون أن تريق قطرة دم..

«هل يستطيع أى إنسان أن يفعلها يا عم زنارى؟».. ابتسم السمكرى العجوز وقد برزت من كرتين فى وجنتيه شعرات الشيب المتصلة فى اتساق غير متعمدة من شعرات أخرى كثيرة فى شاربه وطاقتى أنفه..

- الحواة فقط يفعلونها يا يوسف!..

الحواة أيضا يشربون «الجاز» وينفثونه فى نيران كشواظ حادة سريعة.. ويفعلون أعاجيب أخرى تدهش الخلق وتجعلهم يصفقون طربا ويلقن بنقود «الوهبة» المعدنية فى طاقية الصبى الذى يدور عليهم مرددا عبارة معلمه«محبة وصلاة على النبى».. ولكن الشيخ شنقيطى لم يكن من حواة الشارع رغم كل العجائب والغرائب التى جلبها معه من تلك البلاد البعيدة.. هناك خلف صحراء وجبال وسهول وأنهار تحوطها هالات السحر والغموض.. لم يفهم يوسف أبدا معنى تهويمات وترنيمات الشنقيطى..كما لم يفهم ما قالوه عنه..

جاء من المغرب!..

تتلون الكلمة فى مخيلته على الفور بألوان الشفق! ويصاحبها صوت «الهياتمى» يؤذن للصلاة من مئذنة الزاوية الراقدة فى حضن «طابونة» اشقائه.. «أقام الهياتمية مسجدا ليمارسوا فيه هواياتهم فى الآذان وترتيل القرآن.. فجميعهم دراويش يتمتعون بأصوات شجية»..

ولكن الشنقيطى أسود! هكذا اعترض الهياتمى الأكبر.. صاحب الفرن وقارئ السورة.

- المغاربة بيض البشرة وبعضهم أشقر!.. لم ينسجموا مع الرجل كادوا له كيدا فاضطر إلى «التعزيم» عليهم وتلا أوراده المطلسمة بين آذانى العشاء والفجر.. «رآه كل من على الأحسن وصديقه «براهوطة» وزنادى السمكرى وقد رسم دائرة «بالسلاقون الأحمر على قعر طست غسيل نحاسى وذبح «ترسه» حية وكتب بدمائها رموزا وسط الدائرة ثم راح يغنى بصوت مدغم رخيم ويرقص ملوحا بذراعيه فى اتجاه فرن الهياتمية..

حلت النكبة سريعا قبل أصيل اليوم التالى.. شب الحريق فى فرن الطابونة ولم تفلح كل سيارات الإطفاء فى القضاء عليه.. وكلنه توقف من تلقاء نفسه فور أن أتت النيران على كل أملاك خرطة الهياتمى.. واختنق الهياتمى الكبير ومات أخوه.. ولم يبقى من السلسال غير المؤذن الذى لم يجد بعدها مئذنة يصعدها ليجلجل بصوته فى الآفاق.

.. يا دى العجب.. قالت باطة وكانت يومها أحلى فتيات الداير.. ألم تمس النار شعرة خارج خارطة الهياتمية.. وكأنما أحاط بها سياج محرم لا تعدوه.. وقد اختفى الشنقيطى فى نفس الليلة.. رأته باطة يحمل صرة ثيابه وخلة أدوات السحر.. ويعبر الفناء من ربع «كحيلة» إلى الطابونة ويقف أمام الحريق.. ويتمس مغمغما.. ثم يلوح بيده ويهمس لباطة وهو يجاور منصرفا: القدر لرب مقتدر!

السماء خلفه يضرجها أحمرار النيران قبل أن تخبو.. وفوق السطوح..

مرق شهاب فصاحت راما: النجمة أم ذيل وطلبت الحاجة جازية من الجميع أن يرددوا معها.. سبحنك ما خلقت هذا باطلا فقنا عذاب النار.. ودامت أحزان بيت الهياتمى زمنا طويلا.. وبقيت أطلال الحريق حتى عهد قريب.. وأبدا لم تنمحى من الذاكرة حكاية الشنقيطى!..

شهق يتابع أعجوبة التوارد وعيناها شاخصتان إلى أعلا تتابعان الشهاب المارق كنصل سيف يمانى.. «وما أدرك أنت بالسيوف اليمانية؟.. هى فقط عبارة ترد فى مأثورات النثر القديم كما ترد بيض الهند..

وقف فى الحصة الأولى يسأل الأستاذ تركى الأشوح.. ما هى بيض الهند يا أستاذ؟

– نوع من السويف يا رخم!

– وأيها أفضل بيض الهند أم بيض الصين؟

صفعة الأستاذ وطرده.. وكانت إهانة لا يمكن أ يتحملها زعيم فصل الثانوية العامة الأدبى الوحيد ف رأس التين الثانوية..

.. تركى الأشوح يفتنى زوجته غندورة صغيرة السن يغار عليها بكل ما فى عمره الآفل من جنون!

انتظره مع ثلة «الفاقدين» عند محطة الترام فى شارع «محمد كريم» وهددوه بأنهم سيزورون « المدام» أثناء غيابه ويقومون بالواجب عوضا عنه..

وأمام وكالة الشفقى فى شارع العطارين.. ضربه حسن الغريب الأولى وآخر مرة..قيده له سيد المرسى وأوسعه ضربا.. كسر عليه «متر القياس» الخشبى ثم جلده بالحذاء على مؤخرته

– لن أغفرها لك ياحسن طوال عمرى!..

غمره الخجل حين أدرك أنه لم يكن شهابا.. بل افتتاحية الألعاب النارية التى انطلقت تزغرد فوق الشاطئ والبحر والحديقة.. إنذانا ببدء المهرجان..

خط العمر فى كف العاشق

لقد رأى البداية.. صدفة لم يدركها إلا فيما بعد اقترب بلا سبب من بوابة المدخل.. يحرسها اثنان لهما جسد الرباعين أو المصارعين – يرتدون زى رجلا الأمن الخاص.. ومعهما ثالث يبدو أنه يقوم بدور الفاحص المدقق.. وكان هناك ذلك الفتى الوسيم ذو البشرة الحنطية والعينين السوداوين «عينين باهرتى النفاذ تتألقان بحيوية لن ينساها يوسف أبدا»..كان يرتدى تلك الثياب التى يعدها الشباب من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة للمناسبات!.. «الحتة إللى على الحبل».. ولكنها تبدو فى مهرجان آل الرمادى.. جرحا لمشاعر الاتساق والتناغم..

ابتسامته الوضيئة تعلو وجهه النحيل.. وهو يبرز بطاقة الدعوة.. تبادل الضخمان نظرة.. ثم سمحا للفتى بالدخول.. قبل أن يسرع الثالث.. ذلك الفاحص المدقق ليعترض طريق الشاب.. كانا على كثب منه.. وقد لفته ما يحدث.. وأثار انتباهه..

– أسف.. لا يمكن حضور الحفل..

– معى دعوة.. ها هى.. وبها اسمى..

شرع البطاقة أمام عينه وهو يسأل والابتسامة الآسرة لا تبرح وجهه..

– أتريد بطاقتى الشخصية لتطابق الاسم؟..

بعبسة اضطرار مهنى منضبط واجهه الرجل:
- ليس لها لزوم فأنا أعرفك.. ونصيحتى لك أن تقصر الشر وتبرح المكان..
- لا أعرف سببا يضطرنى لهذا قبل أن أقدم هديتى لصاحبة الحفل وتطلب هى منى أن أغادر ١٣١٣١!
ودون أن يترك للآخر أى فرصة لمواصلة الاعتراض أو النقاش انفلت من أمامه.. لم يجر.. ولم يتلكأ.. كان واثقا.. ولم ينظر خلف..
تورد وجه «الفاحص» ولم يدر يوسف - حتى بعدها بزمن ممتد والذى دفعه للتدخل اقترب من الرجل.. وهتف مؤنبا.. هذا الفتى يحمل بطاقة دعوة فكيف تحاول منعه؟.. استدار إليه وقد أدهشه تدخل رجل لا يعرف.. وما شأنك أنت.. و.. تذكر فجأة فهتف به: أنت هو.. الصحفى فى ملعب الجولف..
-نعم وكنت مع عبدالرحمن بك منذ دقائق.. تحول الموقف تماما.. وأحس أن الرجل يخشاه ويحاول أن يقرب إليه..
-ولد أحمق وسيورد نفسه مورد التهلكة ربنا يستر ومضى رافضا بشدة أن يزيده إيضاحا.. ابتعد عنه حتى اختفى ولم يحدث أن رآه بعدها!
.. هل أحس بالدوار؟.. هم لم يزد عن كأسين.. آه لو رآك حسن أو الحاجة جازية.. إذا لطار الصواب وطارت معه أشياء أخرى كثيرة..مع أن حسن مثلا «حشاش قرارى» وله فى عالم الدخان الأزرق صولات ونوادر.. ولكنه لى يقتنع أبدا بأن الحشيش محرم كالخمر.

- شوف يا ابن والدى.. الحشيش لم يذكر كالخمر فى القرآن!
عجبا يا حسن.. حديث الرسول يقول.. كل سكر فهو حرام.
- كل مسكر. وليس كل «مسطل»..
كانت «الجلسة» منعقدة فى تعريشة السطح.. ورغم «الهواء» فقد دارت رأسه على «الريحة».. مثلما تدور الآن.. لابد أنها لطشة «النبيذ» على معدة خاوية..
أخلى خلف الفيلا تماما من السيارات ليكون مقر «للبوفيه المفتوح».. مساحة لا تقل عن المساحة أمام جامع المرسى.. صفت بها موائد طويلة يعلوها كميات خرافية من ألوان الطعام واضاف لا يمكن أن تعيها ذاكرة.. وقف وبيده طبق كبير يحاول أن يحصر ما يمكن له أن يتناوله.. وكان بجواره ذلك الرجل الأنيق.. الذى همس له بابتسامة خجول.. كل ولا تسأل عن اسم ما تأكله..وضاف بعد لحظة: عشت فى أمريكا وفرنسا وإلمانيا.. ولا أعرف ثلاثة أرباع صنوف الطعام التى أراها الآن!!
.. على حافة السور الفاصل بين الحديقة ورمال الشاطئ.. جلسا متجاورين.. كل يحمل طبقه.. يأكلان ويتعارفان..
- يوسف الشفقى.. صحفى!..
- هانى الكردى.. أستاذ مساعد بكلية الآداب..
.. أسفل منحدر صناعى مزروع بورود صيفية.. رأيا الفتى الحنطى ذا العينين الفاتنتين.. كان قد أقعى بجوار بدوية عجوز- ربما استجلبت خصيصا- كإحدى فقرات الحفل وكان كفه فى يدها..
تحملق فى وجه الفتى.. ثم تسكب عينها فى كفه المفرود..

تغمض.. وتتسارع أنفاسها..
- أنت العاشق والمعشوق..
تجهش فجأة بالبكاء.. يهتز جسدها فى عنف.. يشحب وجه الفتى ولكنه لا يفقد الابتسام.. تنسكب دموعها على الكف المفرودة.. تقلبها لظهرها ثم تنحنى وتقبلها.. وتنتفض واقفة..
- إلى أين يا خالة؟
- ما عاد ينفع.. المقدور مقدور..
تجرى وتغوص أقدامها فى الرمال.. تنكفئ وتنهض.. تصل إلى مرمى المد.. تركع على ركبتيها.. تملأ كفيها من الماء المالح وتسكب على رأسها..
تتسارع أنفاس الفتى.. وتغيب البسمة الوضيئة.. وتتدافع الدموع من عينيه.. يرتعد هانى.. ويقبض على يد يوسف وكأنه يعرف منذ أمد طويل وليس فقط من ساعة أو أقل.. ويخرج صوته مخنوقا..
- ماذا رأت فى كفه؟
وازداد أفق الليل حلكة.. والتوت غصة فى صدره وتمنى أن يجد سبيلا للفرار.

■ الفصل الثالث



صلاة لبنات الحور

الوخزة تخترق جانبى الرأس عند فوديه! لا تبرح هذه المرة.. تسد حاجبيه إلى زاويتى الأنف يسأله رفيق الليلة عما به فيجيبه بالجملة المعتادة.. صداع بسيط!.. يخرج الدكتور هانى من جيبه شريطا به أقراص يفض منه قرصين.. ثم يأتى له بالماء.. هذه أقراص أمريكية تقتل الألم..

لماذا لا يهاجمه الألم إلا في لحظة يتهيأ فيها لمتعة من نوع ما؟ أيكون نوعا من الندم المسبق؟.. تردد طويلا في مواجهة ذلك الطوفان من الذكريات المختلطة تتدفق على خاطره قافزة بلا نسق من عمر لعمر ومن مكان لآخر.. وأراد أن يهرب لكن الألم أغلق عينيه وداخل السواد تقاطعت تلك الأشكال غير المكتملة مكونة من السواد والبياض.. خطوطا ودوائر تتقاطع وتراوغ يصاحبها إحساس من غثيان مضن لا يصل أبدا إلي درجة القيىء ولكنه يظل جاثماً حتى تصفو الرؤية ويتبدد الألم..

مد يده تريد أصابعه أن تتشبث وتغرز أظافرها فى جسم لين.. فناوله هانى يده فى تلبية سريعة غير مطلوبة.. كانت يده باردة...

— تريد أن تترك الحفل وتعود لمنزلك؟
— صديقى احضرنى ولن يظهر قبل الفجر...
— معى سيارتى وبإمكانى أن أصحبك.. فالليلة غير مغرية وتشعرنى بغربة مؤلمة! استطاع أن يفتح جفنيه أخيرا.. وأسعده أن الأشكال الهندسية الناقصة لم تقطع مجال الرؤية كما تفعل دائما.. وكان أول ما رآه ألعاباً نارية تزغرد في الظلمة العلوية..
— أشعر بتحسن ويمكننى أن أواصل الفرجة..

لم ير القمر إلا بعد أن فرغت عروض الصواريخ والألعاب النارية.. وصمتت الموسيقى تمهيدا لظهور حفيدة الرمادى التى نصب المهرجان من أجلها..

احمرت السماء فاغبرت حلكة الليل.. وتورد قرص القمر المطل في «حضور» فظ وكأنه يوشك على السقوط فى قلب الحديقة..

... خالته «روضة» جاءها «عدلها» فرحلت إلى بلد الزوج.. قرية في ريف البحيرة تتبع مركز شبراخيت.. الرجل كان عمدة أو شيخ بلد أو ما شابه! وكان يستضيفهم شهراً فى العطلة الصيفية من كل عام.. وعلى ضفاف الريّاح البحيرى... رأى ذات ليلة.. «خنقة القمر»... تورد القرص مثلما يحدث الآن.. وطاف الصبيان والبنات بشوارع القرية يدقون علي الأوانى النحاسية فى ضجة توقظ الموتى وهم يهزجون مناشدين «بنات الحور» أن يعفين عن القمر ويطلقنه من أسره...

قالت عجوز طاعنة شهدت «هوجة عرابى» أن الحور لن يفلتن القمر إلا بقربان.. وليلتها تطوع الحاج «نبوى» زوج خالة يوسف

فذبح نعجته «العبورة» ليفدى بها القمر.. ولمع سنا القرص المخنوق منعكسا على الدماء الحارة.. فانفك أسر الأسير.. ولعلعت الزغاريد.. وفى زحام الذين تحلقوا حول «الذبيحة» سخنت دماء الكثيرين.. واقترح الفتى الذى يتزعم دائما مباريات «الحكشة» أن يلعبوا في جرن «أبو شوشة».. واللعبة فى الجرن تؤدى بطقوس لابد أن تنتهى باختباءات سرية في «القناية» الجافة خلف الجرن أو فى دغل الصفصاف المجاور «للمصلية» على حافة الريّاح... وربما تسلل البعض إلى أبعد في جنينة «درويش» حيث تغطى أوراق الموز العريضة مساحات اللقاءات العصبية التي تشوبها المخاوف المرتعبة من الانكشاف أو تجاوز المعابثات الظاهرية.. في ليلة القمر المختنق تعمّد فى ردغة إثم ظل يؤرق أمدا طويلا.. لم يكن قد مر وقت طويل على «بلوغه» ودخوله دنيا «الاحتلام».. وكانت لياليه تعانى دائما من الانزواءات التى تحاول معالجة «الفوران» والاستمناء يخلف عنده دائما احساس بالذنب والندم والقذارة.. خاصة بعد أن سمع الشيخ «جاد» ينصح الأولاد فى زاوية داير البحر ويتلو عليهم حديثا يدور حول «ناكح يده»!.. ولعله ليلة «الجرن» لم يفكر فى أكثر من لعبة «رجالة وستات» التى يمارسها الجميع ولا يستطيع أحد أن يتخطى فيها حدود المداعبات «اللمسية».. حتى فوجىء بالولد «جريشة» يمد يده ويمسك عضوه!.. أذهله أن يكون جريشة بالذات من هذا الصنف.. فهو أضخمهم.. وأكثرهم عدوانية.. كان أبيض البشرة مكتنز الخدين.. «أجرودى».. ولكنه كان شرساً ويستطيع أن يضرب «أتخن تخين»!

.. هل أطاعه خوفا.. أم أن فورانه هو الذى قاده خلفه إلى جنينة الموز؟.. لم يستطع أن يجيب علي السؤال حين خطر له وهو يتقيأ في بيت خالته ويتظاهر بالمرض ويصر على العودة إلى الاسكندرية فى الصباح.. (جريشة ضربه بلا سبب بعد أن فعلها معه وهو يحذره من البوح بالسر.. والواقع انه لم ينبس ببنت شفه ودفن الأمر في سابع أرض.. بل وأقلع تماماً عن زيارة خالته وعن شهر العطلة فى القرية!

أفاق من رحلة القمر المخنوق فى القرية.. على قمر آخر يختنق على البحر.. اجفل وارتعد.. حين فطن الى انه مازال ممسكاً بيد هانى.. الذى اندمج فى الفرجة..

صفان من نافخى الأبواق بزى أبيض موشى بخيوط ذهبية.. يطلقون لحن «الأوفرتيرة» وعلى بساط من طنافس العجم الثمينة يمتد من داخل الفيلا إلي حوض السباحة.. جاءته تخطو وحولها كوكبة من فتيات وفتيان الأسرة.. أمواج من الجمال والثراء والعطر تنداح علي ضفاف الليلة ولا تعبأ باختناق كل الأقمار فى مجموعات المجرة!

.. وأنهار من العسل المصفى

.. وتنزلق علي الممشى كقطرة عسل على سطح بللورى.. سمع كثيراً حكمة تتناقلها نساء الأسرة عن «ستى سوريا» أنها قالت «الجاه والعز عسل البنات...» و«هالة» بنت أكبر أولاد «عبدالرحمن الرمادى»... وأقربهم اليه.. والذى يدير امبراطوريته المالية مترئساً علي أشقائه الأصغر منه..

لم ينجب عبدالرحمن بنات.. ولم ينجب واحد من أولاده بنات إلا حسين الذى أنجب وحيدتَه «هالة» فأصبحت قرة عين الرمادى الكبير.. ودرة الأسرة التى تحاط بغلاف من «الكريستال» غير القابل للكسر أو الاختراق.. فقط يعكس الأضواء عليها لتتلألأ وتتحول إلى ماسة لا تجرؤ العيون على اقتحامها! لكن عيون «الولد» فعلتها!.. والصيف هو السبب!..

حصيرة الصيف واسعة!.. والبراح يتمدد بطول الأزرق العجوز!.. وهالة لا تحب أن تُسجن في حوض السباحة الفاخر.. تريد المالح بأمواجه المتلاطمة وتحدياته الخطرة.. وبعد أن ثارت وهددت وأضربت عن الزيارة اليومية التى تهدهد عواطف الرمادى الكبير وترطب جفاف أعماقه الهرمة صدرت الأوامر بإبعاد الحراس الذين ينزلون البحر معها لحمايتها..

... وكان الفتى الحنطى ينتظر على ناصية موجة... حين رأى عروس البحر...

تجمعت حبيبات الشهد علي السطح الأملس وتلامست.. وتجمعت فكونت قطرة.. تخللت القطرة ومضات بللورية فصفتها... تكورت... وتدحرجت.. انزلقت... وأول النهر قطرة مطر.. أو قطرة عسل... أما البحر فلا يجرى في تيار السكون.. وموجه يصخب ويتمرد.. يتحرق للقاء النهر عند المصب... (مرج النهر والبحر إذ يلتقيان... سبحانه!)..

سماه أبوه «زين العابدين» واختصره الجميع إلى زين! من سوق «غبريال» أتى.. ذات صيف يحركه الفضول ليرى ما يسمع عنه...

«رحلة يوم ونعود آخر النهار!.. نسبح في بحر مارينا؟.. لن يسمحوا.. العبور إلي هناك أصعب من تخطى البرزخ ودونه اجتياز الأعراف!.. لكننا شياطين ومعجونين بماء العفاريت! لن تستطيع!.. راهنوني...»

استطاع «زين» في ذلك النهار أن يمتطى صهوة البحر... ليرى العروس تخطر على حبيبات الزبد..

.... (ورأى الشاطر حسن عيون ست الحسن.. فهام بها وهامت به... وكانت بينهما بلاد الله وخلق الله... اليها سيقطع الصحارى والقفار ويمر ببلاد «الغيلان»... ستسأله أمنا الغولة عن كلمة السر فيلقى عليها السلام.. وستسمح له بالمرور: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك).. تشير له إلى مفارق الطرق... طريق الندامة.. وطريق السلامة وطريق الذاهب لا يعود!...

وأخطأ الشاطر زين عند المفترق!

... تتوهج في الشرايين نشوة رغبات حارة.. تلسع تحت الجلد... تمتزج رطوبة «آب» الثقيلة بنسيم البحر برائحة الأعشاب المشبعة باليود وأبخرة الطعام المعد في محلات أمريكية الأسماء... ومن متجر يبيع الأشرطة تنبعث من المجسمات الصوتية أغنية تتحدث عن الحبيب الذى هو نور العين وشاغل الفؤاد.. وفى شرفة قريبة من البحر راديو كاسيت صغير يذيع أغنية لمطربة تتغنى بأشعار نزار وتحكى ما همس به فى أذنها وهو يراقصها..

الظهيرة في حضن البحر دبقة تتثاءب.. وملمس الجلد الدافىء فى

الظل يسرى بالخدر حتى الشفاه..، فإذا التقينا تقطرت في الأشواق حبيبات سائلة من نشع الشهد

شفتا زين.. وشفتا هالة... كانا يرتشفان ويشرقان بنحرة لاذعة... من كفى صيف مدرار تمطر سماؤه سيلاً من عسل!...

.. ولم تكن الجنة بلا سدنة... وكان المعبد يخفى رهبانه في الأروقة المعتمة.. ربض الكل بين الظلال.. وتكررت قصة الخلق والعصيان فالسقوط...

لحامد عبدالرحمن الرمادى الابن الأوسط ولدٌ يُعد للعرش.. والخطوة الأولى هي الحصول على ابنة عمه قرة العين ودرة الزمان...

جاسر حامد الرمادى.. وهالة حسين الرمادى.. ليسا فقط ابنى عم ووارثى الامبراطورية.. بل هما رفيقا طفولة وصبا وزميلان في الكى. يو. سى (الحروف الأولى من الاسم الانجليزى للجامعة الأمريكية في القاهرة... علامة الجودة، ودلالة التميز.. وأروقة القرابة المكملة لوجاهة أهل الزمن الجديد..)..

خط طيران النورس

حين تخفق أسراب النورس البيضاء على صدر البحر الأزرق وتحط لتلتقط القوت فتبدو كأنها بعض من زبد الماء.. تصلح موضوعا للوحة.. أو خيالاً لشاعر.. ولكنها حين تقترب لا تبدو جميلة.. فقط عقبان بحرية شرهة دميمة!

من يستطيع أن يختطف سمكة من منقار النورس؟ من لا يسمع

صراخها تقاتل فتقتل من أجل ما تحوزه؟.. زين العابدين لم يسمع... ولم يعرف شيئا عن النورس!

... وهالة بالنسبة لجاسر حيازة لا تناقش.. وهي جزء من مستقبله الذى لا يمكن لكائن أن يعبث به! لم يسأل نفسه هل اشتعلت نيران الغضب والنقمة فى صدره لأنه يحبها.. أم لأن هناك من ينازعه امتلاكها..

ـــ شاهدوك تعبثين مع صعلوك!..

ـــ هل يعد صعلوكاً وهو معيد حصل علي الماجستير ويحضر للدكتوراه؟

ـــ تعترفين؟

ـــ أحبه!

جاسر لا يستطيع أن يمس شعرة من ألماسة الجد والابن الأكبر... والنصح لم يجد معها وحين صارح عمه بالخطر قال (لا نملك إلا ابعادها... وتأديب الولد!)

أحضروا له «زين» ذات مساء... لابنه.. ثم حذره.. ثم سبه... وفي الخارج تلقفه مجموعة من الأوغاد أوسعوه ضرباً حتى حطموا عظامه.. ألزموه فراش المستشفى شهورا طويلة.. ولكنه يوم خرج كانت في انتظاره!..

ـــ أهو نفس الفتى الذى قرأت له العرافة كفه؟

ـــ هو... زين العابدين!..

نظر يوسف إلي هانى طويلاً (أنت تعرفه إذن؟)

ـــ هو معيد فى القسم الذى أعمل به أستاذاً مساعداً...

ـــ ولكنك لم تأت معه؟

ـــ كلا.. فأنا مدعو من المعسكر الآخر..

وصمت الرجل بطريقة فهم منها يوسف أنه لا يريد أن يواصل الحديث فى الأمر..! ومع ذلك لم يستطع مراوغة فضوله: أهى من أعطته بطاقة الدعوة؟..

أزعجته سذاجة السؤال ولم يضايقه أن يتجاهل الآخر الإجابة!... وتعلقت كل العيون بصاحبة العيد.. وانفجرت الموسيقى مع أصوات تغنى أغنية عيد الميلاد... و«هالة».. تحيط بها حلقة من بنات الأسرة تذهب لتطبع قبلة على خد الجد الذى يتقدم بين أولاده ليرافق حفيدته المعبودة إلي كعكة العيد الفاخرة ذات الطوابق العشر.. وتطفأ كل الأنوار.. تبقى فقط عشرون شمعة ترتعش شعلاتها.. وتبدو تحت الضوء الخافت للقمر المخنوق كأنها جمرات تتقد في أحشاء رماد أسود..، حتي تطلق الصواريخ الملونة مرة أخرى.. وتطفىء هالة الشموع ويصفق مئات المدعوين وتعود الأنوار للمكان مع احتضان الرمادى الكبير لحفيدته وهو يهديها قلادة الألماس المرصعة بيواقيت زرقاء... همس هانى مبهوراً: على عنق الفتاة ثروة لا تقل عن ثلاثة ملايين!...

كيف استطاع زين العابدين وسط حلقة الحصار المحكم حول الفتاة أن يظهر فجأة أمامها،، تسبقه ابتسامته العذبة وبيده علبة المخمل الزرقاء ويقدمها.. ويهمس..

ـــ كل سنة وأنت طيبة...

دائرة للقربان

القارب ينزلق في بحر ريحه رخاء... لا ينتبه لدوامات الأعماق! إذا أغمض عينيه أحس بالدوار... يترك نفسه أحيانا لتيار يحمله في قلب الظلمة... أمواج من مخمل لين تداعب أعطافه... تغريه بوش الغفوة. يستسلم حيناً لأحاسيس الكمون داخل الرحم... وذكريات مطموسة لم تبث منها إلا فرق مشعته...

رائحة «المغات» المحوج تعبث في الحجرة مختلطة برائحة لبن الأم وكثافة الهواء الراكد... لا يوجد منفذ، فالشباك مغلق حتى لا تتعرض الأم لنزلة برد تسلمها لحمى النفاس... والباب مفتوح على ممر طويل لا تطاله الشمس.. مظلم أبدا كالقبو القديم في بيت الربع... و«الناموسية» تحيط بالفراش من كل جانب.. وكل شيء عطن مبلل... فطوال الشتاء لا تجف الثياب ولا المناشف... رطوبة الإسكندرية حاضرة في شتائها وصيفها... ولكن «لمبة» السقف الكليلة تسقط بصيصا على وجه الوليد... تلمع عيناه الواسعتان.. يصلى الجميع على النبى اتقاء للحسد... تقول «الداية» وهى تدفس اصبعها السبابة في سقف حلقه «ياللحوس»: بسم الله ما شاء الله الولد في جمال سيدنا يوسف!

... وسموه يوسف الأحلى! (راما تصر دائما علي أنه «خنشر» ولم يعد فيه ما يمت للحلاوة بصلة... تكرهه؟.. راما؟.. لا أحد يعرفها مثله... ولا أحد يحبه مثلها! بينهما ذلك التعلق الغريب الذى يعبر عن نفسه دائما بكل ما يناقضه!. قذفته يوما بحجر حين أغاظها فشجت حاجبه وانهمر سيل الدماء مرعباً... وسقطت هى من

طولها قاطعة النفس ولزمت فراشها يومين كاملين لم تجف لها دمعة ولم يرقأ لها جفن! وفي يوم آخر ضبطها فى حضن حسنى السماك تحت السلم، رقعها علقة اهتزت لها أركان البيت.. ولكن أحدا لم يعرف أبدا السبب الحقيقى... قال للجميع أنها سبته وأطالت لسانها عليه... وقبل أن ينام دخلت عليه حجرة البرج.. قبلت يده وبكت وهى تقسم له أنها «أول نوبة وآخر نوبة».. وطيب خاطرها وصارحها بأن أكثر ما ضايقه فى الأمر أن يقبلها صبى السماك وقفطانه مفعم بالزفارة!

... لماذا تذكر راما الآن وهو يراقب انسحاب هالة من وسط المحتفلين إلى داخل القصر وبالدور الأعلى شرفة تطل علي الجانب الاخر للحديقة... الجانب المعتم الخالى من فعاليات المهرجان! (رددها لنفسه وهو يضحك) البنت لابد ستفعل كما فعلت راما.. خاصة وقد لمح بطرف عينه الولد زين يختفى خلف «البرجولا»... تختلف الأماكن باختلاف الطبقة.. راما تحت السلم... وهالة بأعلى الشرفة... لا يدرى ولم يفهم لسنين طويلة بعدها حقيقة الدافع الذى حركه ليتسلل متابعاً خطوات الفتاة (غريزة الصحفى؟ كلام فارغ!!) لكن الذى فاجأه حقيقة أن يلتقى بهانى يفعل نفس الشيء... (زعم الدكتور فيما بعد أنه كان يقتفى خطوات صديقه «زين»...)

والله؟.. وأين زين؟..

آه يا زين العابدين... يا ورد منوّر جوه البساتين!

قرأ كثيراً عن علي زين العابدين... ذلك المعشوق من آل البيت..

ابن الحسين معشوق المصريين... ليس كل المصريين.. فهناك هؤلاء المحتفلون بعيد ميلاد حفيدة الرمادى... الذى لا هو سنى.. ولا هو شيعى.. ولا ملة له بين أهل الأرض
.. قبل أن يخطو أحدهما أول درجات السلم الصاعد للطابق الأعلى.. اندفع من بينهما هابطاً كالسهم فتاهما الحنطى ذو العينين النجلاوين..
يجرى زين عابراً الحديقة إلى الظلمة الداكنة خلفها.. وتتبعه الشياطين..
... كان هانى يهم بالجرى خلفهم.. قبض يوسف على ذراعيه يمنعه..
ـــ أشعر بخوف قارئة الكف...
التمعت الدموع في عيون الرجل الرقيق... ولكن يوسف سأله بحزن:
ـــ وماذا يمكنك أن تفعل؟.. دعه فربما استطاع أن يفلت منهم.
خط الدم (لحظات الوعى الأخيرة في ذاكرة الضحية)
لم تذكر نشرة الأرصاد شيئاً عن خسوف منتظر! فكيف اختنق القمر؟
سأل نفسه وهو يربض خلف سيارة في الساحة الخلفية.. انعكس الضوء الأحمر علي وجهه في مرآتها الجانبية وأنفاسه تتسارع... فى صدغيه ينبض دفق دموى وصدره ينشق تحت ضربات هائلة...
«هالة!.. ماذا سيفعلون بها»..
ضجة الأقدام والسيقان التي تقفز فوق سطوح السيارات المتراصة

تبدو وكأنها ايقاعات تعزفها فرقة طبول جنائزية... وملوحة العرق تكوى جفنيه...
... مالك يا زين ومال بنت الرمادى؟.. ومال الانسان وقدره؟..
[رسالة الماجستير كانت عن القدر في المأساة الإغريقية... أمه بائعة الخردوات في سوق غبريال شخرت وهى توبخه... بلاهم... حاتبقى دكتور في إيه؟.. ياخى اتلهى.. افتكرتك ستصبح دكتور فيما يدعونه بالكمبيوتر!.. نطقتها صح يا زين؟].
.. نطقتها صحيحة يا أم زين! ربنا يخليكى.. ادعى لى أخلص الليلة.. سأركع علي ركبتى
... وأقبل رأسك ويديك وقدميك وأتوب أمامك على المصحف!
الخطأ التراجيدى يترصد المصير!
ويفاجئه ضوء مبهر من كشاف طوارىء يوجهه أحدهم... (المصير؟.. أى بطولة فيما تمضى إليه؟)
تثلجت قطرات العرق النازفة من مسامه... ولم يتبين ما خلف الهالة المشتعلة..
انتصب جاسر الرمادى يمسح عرقه بكلتا يديه... ولهاثه يدوى في أذنيه كالنذير..
ـــ هاتوا الكلب والحقوا بى...
... خارج كردون القرية... في مساحة معتمة إلا من ذبالات القمر المخنوق.. على الشاطىء كانوا هناك... وفي البحر آخرون يدورون بقواربهم في انتظار.. أصوات محركات القوارب يخفيها هدير الموج والضجة الصاخبة في الحفل القريب..

أدرك زين ما يـنتظره... وهم يدفعـونه إلى المياه... (عـوم يا عوام..
اسبح يـا بطل السبـاحة... وابحث عن عـروسة بحر تـعانقهـا ياابن
الحرام...) صفعة ولكمة وضربة على الرأس... وانكفأ في المياه...
طفرت دموعه... آه يا أم زين... آه يابويا... يا أخواتى...
آه يا هالة!...
طعم الماء المالح يختلط بطعم الدم... وأصوات مـحركات القوارب
تعلو.. وتقترب!.

الفصل الرابع



ضحى اليوم التالى

أجمل ما فى حجرة البرج هو نفسه أسوأ ما فيها، شرفة بعرض الجدار تم تقفيلها منذ سنوات لتصبح جزءاً من الحجرة. ولم يكن الجدار الذى أضيف سوى مجموعة من ضلف متجاورة «بفصلية» صنعت من إطارات خشبية تضم مربعات الزجاج التى تكشف البحر للرؤية.. ولها من الداخل ستائر صنعتها «باطة» من الكريتون المشجر.. تُضم وتنفرج وفقاً للمزاج.. وليلاتى يحرص يوسف على إغلاقها قبل أن ينام لأن دخول شعاع واحد من ضوء النهار كفيل بإيقاظه فلا ينام ثانية.

أحس بالوخز فى حدقتيه تحت جفنين مطبقين على مرئيات لونية معتمة.. يتخللها ابيضاض يتمدد لينفجر فى بقع سوداء تسبح فى فوضى واستطاع أن يراوغ الوخز مرة أخرى ولكنه أحس فى نفس اللحظة بمثانته تلح ممتلئة.. واضطر لفتح عينيه.. ليقتحمها جحفل كامل من أشعة الشمس... آه.. نسيت أن تفرد الستارة قبل أن تنام!... ولكن.. متى نمت؟.. متى عدت؟.. وأين كنت؟... «ميعاد رفيق وحفلة آل الرمادى...».

ضربتـه مطرقة على رأسه حين حـاول أن يركز ويستـدعى الذاكرة!
لعله مجرد حلم...
«انتظر».. رتب الأحـداث وفقاً لـزمن حدوثهـا! حين اختنق القـمر وصـدحت مـوسـيقى العـيـد وامـتـدت يدها مع يد جـدها لتـقطع الكعكة... لا.. قـبل هذا... رفـيـق يختـفـى.. وهانى يظهـر... من هانى؟ آه نعم... أسـتاذ أدب إنجليزى أو مـا شابه وجـاء معـه الفتى الحنطى ذو العينين السوداوين... كلا الفـتى كان قبله... أو ربما جاء بعده... «حبـيبها»... ياعم عبدالحليم ليس هذا وقـته... وقف يفرغ مثـانته فـى المرحاض وهو يسند جـبينه الملتـهب لبلاط «الـقيشـانى» البارد...
«على مهلك».. واحـدة واحدة... الفـتى اقتحم دائرة الأسـرة! قدم هديته للبنت الفرس!
البنت الفـرس؟.. مجـرد تشبـيه.. مـا علينا.. بعـدها اختـفى.. واختـفت رحـاب! رحـاب من يامـسـطول؟... بنت الرمـادى اسمـها هالة! ومـا له.. هالة! رأيتهـا تختـفى وتصعـد السلم.. الفـتى الحنطى هـو الذى اندفع نازلاً وطاروا وراءه كـشـيـاطين الجحيم..
الآن اتضحت الليلة.. وأسـفرت الذاكرة.. عن المشهـد الأخير على شاطىء البـحر... أقـعى جالسـاً القرفـصاء فى أرض الحـمام... لم يشعر حتى «بأستك» اللباس وهو يلسع خصيتيه... خارت قواه... ياولاد الذين.... شعـر بمعدته تصعد إلى حلقـه... ولعابه يجف فى فمه...

«لعله حلم؟»

لست الصـــدِّيق ياسـى يوسف حـتـى تحلم بالكواكـب السـاجــدة والبقرات السمان... (يارب اجعله مجرد حلم... لعلى أفرطت فى الشراب واسـتلقيت على الرمـال فأخذتنى سنة من الـسكر البيّن... وفـيـها حلمـت! أجل.. هذا هو مـا حدث!.. كـلا.. إذا كنت قـد رقدت صريع ثمالتك فمن الذى أحضرك إلى البيت؟..
وضع رأسه تحت «الدش»... كانت المياه باردة (الجدار الذى تتخلله مواسير المياه مشترك مع الجار ولا تطوله شمس)...
فى الفـجر نزل الطل... وصـاج سيـارة هانى تبلله الرطوبة.. وضع كلتا يديه ثم مسح بهما على وجهه... وركب..
لم يتبادلا نظرة ولا كلمة طوال الطريق... كـانت دموع هانى تنهمر فى اتصـال لا ينقطع وكان ينشج أحـيانا كـالأطفال... وعـوى مرة كالمرأة مكلومة.. وعند ناصيـة داير البحر.. نزل يوسف.. ثم انحنى يطل عليه... أراد أن يقول له أى شىء :
ـ ربما نجا من أيديهم؟!
لم يجبه ... وغاب بسيارته فى شبورة الفجر!
... جاءت «راما» بطبق الفول بالبـيض و«التخديعة»... لم تجده فى سريـره.. نادته فلم يجب.. اشرأبت بعنقـها مـن خلال باب الحـمام المفتوح...
ـ خيبة جديدة من خيابات دلوعته ياامه!.. بسلامته نائم فى حوض الدش بهدومـه! لحقته باطه وأم صـبحى خادمة الأسـرة الدائمة فى الوقت المناسب.. لم يكن يوسف نائما... كان يغرق!

حين توهج البحر

الظهيرة تأتلق بغلالات كهالات الماغنسيوم... وعلى السطح المائج الأزرق تتلألأ آلاف النجمات الفضية... ووسط مجموعة من السابحين كان مستلقيا على ظهره.. لونه الحنطى لم يشحب ولم يزرق.. وجلده لم ينتفخ... وابتسامة دهشة ثابتة على قسماته (ماذا رأى فى الأعماق المعتمة؟... صفوفاً غير مكفنة من غرقى أزمنة أخرى.. بقيت فى الغمر لا تبرح وترفض الصعود للظهيرة الحارة؟).

... أما العينان النجلاوان الشاخصتان بنظرة زجاجية إلى الفراغ.. فلم تنغلقا ولم تأكلهما الأسماك...

سابح بجواره سأله عن قدرته على الغوص كاتما أنفاسه... واجتذب السؤال سابح آخر... أحاطا به.. لاحظا الجروح التى ظلت غير مندملة رغم الملح الذى امتصته... أدركا فى لحظة معاً أن..... وتوهج البحر!

خط الدم

قال الجد لابنيه فى حضور الحفيد الفتى والحفيدة الفتاة:

ــ جاسر وهالة يعودان إلى القاهرة ويتزوجان قبل أن ينقضى الشهر!

ولا أحد يجرؤ على معارضة الإرادة السنية!... ثم أشار للجميع أن ينصرفوا إلا الحفيد!.. جلس الشاب ذو الأنف المعوج (يبدو وكأنه كسر فى شجار قديم) والشعر الأكرت (وراثة عائلة الرمادى).. سمع مرة من إحدى عمات أبيه أن الجد كان يدعى فى شبابه

«عبدالرحمن الأكرت» وهى تحمل معنى مزدوجاً... يقول ابن عم بعيد مطرود من جنة الرمادية.. أن المعنى الآخر لا صلة له بالشعر الأكرت وإنما ينسب لتعرض عبدالرحمن فى أيام فقره لكثير من «الضرب على القفا».

... جاسر نفسه طويل القفا... وله تفاحة آدم بارزة فى «سيميترية» تتسق مع الأنف الطويل المعوج... رمقه جده بنظرة عميقة.. وأشار له بأصبعه ليقترب منه... أصبح وقد انحنى راكعا بين يديه... فأمسك بأذنيه فى وقت واحد وفركهما بغلظة.. لم يصرخ الفتى.. احمر وجهه فقط وجحظت عيناه بكراهية خرساء.. وأتبع الجد قرصة الأذنين بصفعة وهمس : عثرت الشرطة على الولد!

ــ كان ذلك متوقعا وإن حدث بسرعة غير مفهومة...

ــ سيكون هناك تحقيق... والعشرات رأوا الفتى فى الحفل!..

ــ سُكَر... فنزل البحر.. فغرق!

ــ الجروح والخدوش ستثير الشكوك!

ثرثر الفتى ولم يسمع الجد الذى تقطب جبينه وغامت عيناه بنظرة كابية ثم نهض وأشاح عن الفتى وخرج إلى الحديقة!

ولحجرة هالة شرفة عريضة تطل على الشاطىء... (منعوها طوال اليوم أن تقترب من البحر... توسلت إلى أبيها... ولكنه اعتذر بأنها إرادة الجد..! حسين عبدالرحمن الرمادى طول عمره «شرابة خرج».. شطارته فقط فى الأعمال ومغامرات السوق.. أما فى الأسرة فهو عضو خامل.. كل السلطات بيد

أبيـه.. ولـم يتردد فى إطاعـة الأمر الذى أصـدره له بأن يطلق أم هالة...).
تتساقط الدموع فى كفيها المقلوبين على حجرها!
«أعرف أنهم قـتلوك يازين!.. ولكنهم لن ينتزعوك من أحـشائى... أنت هنا.. تتحـوصل فى رحمى... تـتشرنق فى مشـيمتى... أشـعر بك تتبرعم فى جوفى لتزهر!... زهرتك تورق.. تنفتح عن ثمرة... ثمرتك ياحبيبى المحروم...».
[سـتقف هالة ، بعـد أسـبوعين يوم قـرانها لـتواجـه الجـميـع وتملى شرطها : سيكتب الوليد باسم زين العابدين أيا كان الزوج].
تتساقط الدموع على سور الشرفة... وعيناها تبحر فى المدى المنداح تحت وهج الظهـيرة.. رائحـة اليود وأعـشاب البـحر تعطرت بعـبق الجسد المعشوق...
«سأنزف حـبك طوال عمرى فى دموعى وقطرات عـرقى ورضاب فمى وانبثاق الدم منى جرحاً وحيضاً.. سأنزف حبك فى أيامى مع مطلع الشمس وحتى يـخسف القمر.. سأ... تتـساقط الدموع على الرمال...
آثار خطواتنا ياحبيبى تعرفنا... تأتى إلينا.. تقودنا...
تتساقط الدموع فى البحر...
سـأعـفى فـجـر كل ليلة بلحـظة الاخـتناق.. وأجـرع الماء المالح... وأدخل السرداب...
. . . .
تقـرير الطبـيب الشـرعـى. الموت باسـفكسـيـا الغـرق. الكدمـات

والسحجات والتجمعات الدموية تحت الجلد حدثت قبل الغرق!
وكيل النائب الـعام الذى ذهب «ليعـاين» المسرح أعطى أذنه بانـتباه لضابط المباحث.
ـ هناك أيضـاً قطرات دم تبدأ من السـاحة الخلفيـة لقصـر الرمادى وتسير مع آثار سحب جسم علـى الرمال وتصل إلى شاطىء البحر خارج أسوار القـرية!.. حصلنا على قائمة بالمدعوين فى حـفل عيد الميلاد... سنسأل كل من نظن أنه رأى أو سمع!
.. شرد الوكيل بعينيـه إلى سماء بهتت زرقتهـا إلى حد الابيضاض عند حدودها مع البحر.. وابتسم مغـمغما ـ اسألوه.. لعله يعرف!
ـ من؟ ـ البحر!
... ومضى مبـتعداً عن الرجل الذى ظل يرمقه بدهشة مـتسائلا، هو يهمس لزميله..
ـ فلسفة أم خفة دم؟.. «شغلانه» مقرفة!

مساء للطيور الهاجعة

الصـراع يفـتك برأس رفـيق رغم كل مـا ابتلعـه من أقـراص طوال اليوم، يدور فى أرجـاء البيت وهو يسب ويتـشاجر متـهماً الجـميع بالتآمر على ايقاظه مبكراً.
ـ لم يوقظك أحد... فقط تحتـاج للتخلص من آثار السم «الهارى» الذى ظللت تجرعه طوال الليل... راجـع سكران مع طلعة الشمس وتشكو من الصداع؟
ولهجة الأم الصارمة ألجمته فلم يعقب وانزوى فى ركن الشرفة يضع كـمـادات الثـلج على جـبـينه! (هى الوحـيـدة الـتى يعلو

صوتها عليه وعلى أى شحط فى أسرة الجوينى.. طول عمرها تتمتع بالسطوة والأمر النافذ... وطول عمرهم يطيعون ويخفون ذيولهم بين سيقانهم ويبتلعون غمغماتهم المحتجة قبل أن تسمعها وإلا كانت واقعة «البعيد» منهم سوداء... حتى الأب كان فى عز جبروته يخفض البصر أمامها ولا يخاطبها إلا هامساً (أمرك يانعمت هانم)... وكان رفيق كلما حزبه أمر من الأمور معها يلجأ لرحاب ــ رغم أنها الأصغر ــ ويلقى بشكاواه أمامها...

ــ طبعا وقد تعودنا عليه!

ــ الناس تظنها شامخة بأصل تركى أو شركسى ولا يعرفون الحقيقة!

تزجره رحاب (إقصر الشر!.. تعرف أن السيرة محظورة.. والحقيقة غير كاملة أمامنا فكيف تريد أن يعرفها الناس؟)...

... الصداع يغلق عينيه ولكنه يحس بها وقد جلست بقربه... «هل هذا هو العطر الذى يسكر يوسف؟.. فيرست تعنى الأول... الأول فى أى شىء؟... هجص! الصنف الذى تضعه البنت «سارة» أجدع منه ألف مرة... بنت الكلب عليها زوج نحس.. كان المفروض أن تحضر حفلة الأمس...».

ــ لهذه الدرجة كانت «الأردخانة»؟

لم يفتح عينيه (حالاً ستسأله عن الزبون... «دوغرى» يابنت ودعك من اللف والدوران).

ــ انفصلنا فى بداية الليلة ولم ألقه حتى الآن.. ولا أعرف كيف عاد لمنزله... ربما ركب مع «نتفه» من النسوان اللاتى ملأن سراية الرمادى وكن جميعا على قفا من يشيل!

خلال رموشه التى «بربشها» لمح امتقاع وجهها.. امتعته اللعبة وسرت عنه فى هذا النهار البغيض فأمعن فى أغاظتها..

ــ كانت «ميغه»! أينما يرفع الرجل منا بساقه يغرق فى أفخاذ لا تعد ولا تحصى.

هبت واقفة وهى تلقى بالمجلة التى تشاغلت خلفها...

ــ لا أظن يوسف منحلا مثلك!..

ضحك حتى كادت رأسه تنفجر من عشرة مطارق هاجمتها فى نفس اللحظة.. صرخ بعزم ما فيه.. آخ..

... يقبل المساء على حجرة البرج... ساكنة معتمة... رحل الشفق وجاء الغسق.. من أجمة الأشجار الباقية فى حديقة المستشفى القديمة تترامى أصوات عشرات من أسراب العصافير العائدة إلى أعشاشها.. زقزقة تبدو كما لو كانت تلك المخلوقات الرقيقة قد اصيبت بالجنون... من خلال الزجاج رنت راما إلى سماء بدأت تبدى نجومها وسط زرقة داكنة تتحول حوافها إلى حمرة غسقية تتخلل تلك الندف من السحابات البيض المتناثرة فى الأعالى... مازالت تمسك يد يوسف الغارق فى ساعات نوم جاوزت الأربع منذ نقلته نساء الأسرة من الحمام إلى الفراش ــ جاء حسن الغريب ليطل عليه.. «حمدت ربها كثيرا لأنه لم يشم رائحة الكحول المختلط بالقىء والذى يملأ.. «السلطانية».

ــ نرسل فى طلب الدكتور لمعى؟..

ـ إذا ارتفعت حرارته...
ـ أين كان طوال الليلة؟ لم يكن قد عاد حين ذهبت أنا وسيد المرسى لصلاة الفجر عاجلته باطه قبل أن ينفلت لسان راما: كان فى فرح ناس أكابر فى العجمى...
ـ شيء لله ياسيدى العجمى ...
ـ شيء لله يامرسى يابو العباس ...
.. شيء لله ياأباصيرى ياصاحب النهج... وأنت ياسيدى ياقوت العرش وأقرانك المصطفين بجوارك فى القاعة تتسربلون بالأخضر والأحمر.. (هل كان يهلوس؟... كلا فهو يحس بيد راما... ويرى النجوم من خلال الضلف الزجاجية المفتوحة.. ويشعر بنسيمات ليلة صيفية فى بدايتها.. مع رائحة شواء السمك المتصاعدة من محل العدوى... إذاً فما الذى ألقاه فى الجب..؟ ضحك داخله إذ تخيل أن بعض السيارة سيلتقطونه ويقدمونه للعزيز... وامرأة العزيز.. وتجرى وراءه لتقد قميصه من دبر..! أم تراها أحلام السجن؟ أين السبع العجاف والسبع السمان؟...
هو يعرف عن يقين أنه يهذى... ويريد أن يفيق من تلك الغفوة الثقيلة ويقاوم الخدر الذى يصعد كأسراب النمل من أصابع قدميه وحتى صحن رأسه... بدأت حدقتاه تتعودان الظلمة التى لم تكن سابغه بسبب أضواء الشارع المنعكسة.. ورأى فى زحام المرئيات المتقاطعة المبقعة (هذه المرة بلا صداع) عينين نجلاوين تبرقان ببسمة حنطية...».
أجفلت راما حين سمعت النهنهة ورأت قطرات تلمع منفلته من بين الجفون... تقبضت أصابعها على كفه المبللة بالعرق.

ـ تبكى يايوسف ـ أتراك تحلم؟..
.. لم أكن أنا الباكى ياراما.. إنه هانى!.. أنت لا تعرفينه!.... صديق زين العابدين.. ولكن من هو زين بالنسبة لك؟... حتى لو حكيت لك ما فعلوه به؟.. هب جالسا كالملدوغ.. وفى نفس اللحظة خبطت راما على صدرها مبسملة مستعيذة من الشيطان وأطلت باطه من الباب..
ـ ألم يستيقظ بعد؟
مدت يدها لتضىء المصباح رأته مستويا فى جلسته جفف عرقه بكمه.. وراما مازالت تتلو الآيات المنجيات.
ـ هيا يابطل.. أستاذ يسأل عنك.. ينتظرك فى حجرة السلم!
حجرة السلم هى حجرة الاستقبال... مثل حجرة البرج سميت كل حجرة فى البيت باسم: حجرة حسن الغريب من زمن تسمى «المقعد البحرى»... وحجرة سيد المرسى القديمة احتلتها باطه بعد زواجه وتعرف «المقعد القبلى»... وتركت الأم جازيه مع راما فى الحجرة «الكبيرة» التى سميت كذلك منذ تزوج المرحوم من الست جازيه... أما «شغالات» البيت... فلهن حجرة الكرار... والحجرة المسحورة فى زاوية البسطة العلوية الفاصلة بين «الكات» الثالث والسطوح!...

البكاء على قبر مفتوح

لا يعرف هانى ما الذى دفعه للحضور! ولم يدر وهو يقود سيارته انها تأخذ طريقها إلى داير البحر! فقط وجد نفسه يدق على باب يوسف الشفقى.. ثم يدخلونه فى ذلك «الصالون» المفتوح على

السلم... والذى تنوح منه رائحة عطن الأماكن التى لا تستعمل كثيرا مقترنة بعطر قديم رخيص وتلك الرائحة النفاذة التى تشير لوجود حياة مستقرة للفئران فى المكان... على الجدران صور عائلية فى أطر خشبية أصابتها الرطوبة الملحية بتآكلات جسيمة... تعلقت عيناه بصورة منها لطفل جميل يرتدى قفطان وطاقية حجازى ويمتطى صهوة حصان أبيض فى أحضان شيخ خمسينى... رجح بلا سبب قاطع أن يكون يوسف وأبوه فى مناسبة ما...

ــ يوم ختانى!

... كان هانى مسمراً أمام الصورة يتأملها حين دخل يوسف ورآه.. لم يتبادلا الترحيب... ولم يعلق هانى على ذكرى الختان... كان مشغولا بفكرة أخرى..

ــ تعرف أنك تشبهه لدرجة مقلقة...

«وما الذى يقلق فى أن يشبه الابن أباه؟».

ــ لا أقصد أباك بالطبع!.. أنت تشبهه «هو»...

.. هو من؟... ماذا يقصد مدرس الجامعة هذا؟.. وما الذى جاء به؟.. إن ساعات فرضت عليهما الاقتراب فى حفلة آل الرمادى لا يمكن أن تصنع منهما صديقين..»

ــ أشبه من يادكتور؟..

عتمت عينا هانى وانكسر جفناه... وبدا على وشك البكاء...

ــ لم أفطن لهذا التشابه بالأمس! ولكنه أقض مضجعى حين عدت لمنزلى.. وظللت أفكر فيه طوال اليوم... تعرف أننى لم يغمض لى جفن حتى الآن؟.. لم أظن أننى يمكن أن أنام إلا بعد أن آراك مرة أخرى...

كان يحملق فيه متفرسا بنظرة محمومة.. وبياض عينيه كساه الدم...

ــ بك شبه من زين كأنك أخوه! توأمه!

ارتعدت أمعاء يوسف ونبض وريد فى صدغه... وأحس للحظة أنه يكره الرجل الماثل أمامه كما لم يكره شخصا من قبل...

وبنبرة عدائية تقطر بروداً سأله عما إذا كان قد جاء خصيصا ليحقق الشبه بينه وبين زين العابدين؟..

بلا دعوة.. تهالك الآخر على أقرب المقاعد... ورفعه أصابع يديه إلى جانبى رأسه كأنه يمنعها من السقوط...

ــ لا ... هذا أمره عارض.. وربما كان توهماً منى!.. آه لو تعرف ما الذى ألم بى فى تلك الساعات الأخيرة! كما لو كنت شريكا فى الغدر به!.. ولا شك أنك أنت أيضا تشعر بنفس الذنب.

«أى ذنب أيها المخبول؟..»... لكن هانى يتدفق كنهر أتاه الفيضان.. يتحدث فى نبرة أقرب إلى هذيان المحموم.. وعيناه الملتهبتان تشرقان بالدمع الذى لا ينفرط... وصوته يتهدج كأنه يصارع سكرات الإغماء..

ــ كنا هناك... وتفرجنا! أتصدق؟.. تفرجنا.. وربما استمتعنا بالفرجة.. سرنا فى موكب الجلادين وهم يسوقون المحكوم إلى المقصلة ويركعونه على ركبتيه... ويضعون النطع والسلة التى سيتدحرج إليها رأسه... ويرفعون البلطة.. لا.. لا توجد بلطة فهم يستخدمون المقصلة... هم يدفعون عنقه داخل الشق المعد لهبوط السكين.. وينظرون أولا للمتفرجين.. لنا ونحن نكاد نهلل ونصفق

ونطالبهم بـإتمام القتل.. لماذا تنظر لى بهذا الـذعر؟.. حقـا لم نفعل ذلك ولكننا كـدنا نفـعله... فـعلناه بالإمكان... وبالصـمت... وبالإحجام عن نجـدة الفتى... نعم... لم نحرك إصبعا لنحـميه! لم نصدر صـوتا لتنبيه الناس فيسرعوا لنجـدته.. إذا فنحن لا نختلف عن جلاديه.. نحن قتلة.

الفصل الخامس



حين أجهش هانى بالبكاء تملكته رعدة نفضت جسده وكأنه تلقى صدمة كهربائية مباغتة..

.. لقد حدث كثيراً أن رأى رجالاً تغرورق عيونهم بالدموع.. وقد يذرفونها فى غزارة ولكن بلا صوت.. بلا نهنهة... مثلما كان من عمه إبراهيم وهو يسير فى جنازة أبيه.. ولم يصدق نبرة صوت على الأحسن وهو يهمس له: عمك يبكى حزناً علي أبينا وقلبه يرقص فرحاً.. دموع التماسيح!.. ربما اختلف الشقيقان طويلاً على ميراث الجد وجرهما الخلاف إلى ساحة المحاكم طوال سنين.. ولكن الدم أكثر كثافة من الماء.. وحزن العم بدا صادقا فى عينى يوسف.. أما أن يجهش رجل بالبكاء ويهتز جسده ويعول كالحريم فلم ير مثلها إلا مرة واحدة.. حين ركع حسن الغريب على ركبتيه بجوار السرير المسجى عليه جسد «هانم» وانفجر في بكاء صارخ رافضاً محتجاً.. وقد أحاط وسطها بذراعيه وراح يأمرها غاضباً بأن ترد عليه ونهرها بقوة لتنهض بينما تكأكأت عليه نسوة البيت كلهن: جازية وباطة وأم سعد وحليمة زوجة سيد المرسى ورحن يجذبنه بعيداً عن جسد المتوفاه.. وهو يقاومهن.. ويلطمهن ويلطم وجهه.. وإذ شاركهن

الرجال ونجحوا في إبعاده فرّ على الأرض راكعاً مواصلاً عويله رافعا ذراعيه لأعلى يجأر محتجاً: أهي مشيئتك أن تأخذها منى؟.. لم وأنت العادل الرحمن؟ بماذا ستنفعك وأنت الغنى؟ وحين نهره الشيخ أبو الروس وطلب منه أن يستغفر صاح به: سأستغفره وأتوب إليه ألف مرة.. ولكنى فقط أسأله لمَ؟..

لم تعمر هانم بعد زواجها من حسن.. لم تكمل العام ولم يدر عليها الحول.. فقد حملت من أول شهر.. وفي أوائل التاسع سقطت من على سلم السطح النقال وهى تضع آخر صينية من صوانى الصلصة في الشمس.. ولم تفلح الجراحة العاجلة في إنقاذها أو انقاذ الجنين..

كانت مازالت «عروسة».. وكان حسن فى عنفوان انتشائه وتفتحه بالرجولة الراوية المرتوية.. فبترت داخله ــ وكأنه هو من أجهض حمله ــ كل الملذات الموعودة وهناءات الشباب النضر وأحلام القطوف الدانية..

وما انبسطت بعدها أبدا تقطيبة ما بين حاجبيه ولا استطاعت عشر سنوات تالية أن تفعل به فعل النسيان لتعيده إلى أرض التمنى والعشم من جديد...

... ودخلت راما بصينية الشاى ولم تستطع كعادتها أن تلجم لسانها:

ــ يا خرابى! الرجل يبكى وينوّح كالأرملة! ماله يا يوسف؟.

نهرها ودفعها دفعا للخارج واستدار حانقا إلي ضيفه

ــ ما تفعله بنفسك تهويل ومبالغة غير مفهومة.. من يكون بالنسبة إليك في النهاية؟ لا هو ابنك ولا أخيك ولا من بقية أهلك!

رفع إليه رفيق عينين محمومتين عامرتين بالدهشة!.. «كيف؟.. لقد كنا شهوداً... يجب أن نفعل ما يفعله الرجال...».

وماذا يفعل الرجال؟... قلت بلسانك اننا وقفنا نشاهد ولم نحرك حتى عضلة اللسان لنطلب الغوث للفتى المغدور... فهل يعد هذا فعل رجال؟..

اصطحبه إلي اللسان الصخرى المجاور لطابية «قايتباى».. والليل يغالب أضواء المصابيح الكهربية الممتدة في عمق اللسان...

عند أقدامهما.. كانت دفقات موج خفيفة تبلل الصخر بفقاعات زبد تتلاشى عند النتواءات والفجوات الزلقة التى يكسوها طحلب أخضر (يبدو أسود ليلاً.. ولكنها ذاكرة الألوان)

وانحنى ولمسه بأصبعه.. وهو يرمق صاحبه.. «أتؤمن بوحدة الوجود؟»

ــ سؤال غريب!.. ومع ذلك فليس لى إلمام عميق بالفلسفة! وليلتنا هذه لا تحتمل حوارات عن الوجود والعدم والحق والخير والجمال!..

ــ أحس أن هذه المياه بها جزء منه! ألم تمتص آخر رشفة من رحيق حياته؟ ألم تتخلل مسامه بالملح واليود لتمنع جلده من التحلل؟ إذاً فهو «موجود» فيها بشكل أو بآخر.. هذه الحفنة من المياه اسمها زين!

ركع بجواره ونظر فى عينيه.. كان الالتهاب قد انعكس عليه ضوء قادم من بعيد فبدا متورماً مع أن البؤبؤ كان متسعا يكاد يملأ الحدقة!.

«أنت من يشبهه ولست أنا!.. عيناك هى عيناه.. حتى ارتجاف طاقتى الأنف وتدلى الشفة السفلى.. بل أنت هو نفسه!..» ! نهض هانى دون أن يعلق.. واستدار ومضى بخطوات سريعة يريد أن يعبر المشى إلى الشارع.. ناداه فلم يلتفت.. هب وجرى خلفه.. لحق به عند

متحف الأحياء المائية.. «لماذا ذهبت؟...» التفت ورمقه بنظرة كابية..
«لن نكون أصدقاء... فأنت لا تحبنى!».. تأبط ذراعه بمودة خالجته
علي غير توقع... وسارا إلي مساحات الضوء عند بداية الكورنيش
ــ الناس لا يتصادقون يا أستاذ بين يوم وليلة!
ــ لماذا أتيت بى إلى شاطىء البحر؟..
ــ لكى أدفعك إلى القفز فى الأعماق وأخلص منك.
بضحكة صاخبة اتبع كلماته الهازئة ولكن الآخر ظل يرمقه بحزن
كثيف.. وفى جدية تامة أخبره بأنه يود لو فعلها.. (عجيب أمر هذا
الرجل.. أيحب الفتى الحنطى إلى هذه الدرجة؟...)

دائرة الرجل الرقيق

... من أم شامية شقراء.. وأب سكندرى فى دمائه أصول تركية ولد
كأنه فلقة «قمر».. ظل طفلا وحيدا أنجبه الأب في أصيل حياته ورحل
عنه قبل أن يبلغ العاشرة.. والأم لم تزل بعد فى عنفوانها..
لم ينسجم أبدا مع الرجل الذى تزوجته (كان لابد أن أتزوجه يا
حبيبى.. حتمية ستدركها فيما بعد.. حين تكبر) لم يفهم.. ولم
يقترب.. تباعد عن غريمه الذى بدا له دائما فظاً خشنا سوقى الطباع
(كيف ارتضت أن تلقى بنفسها في أحضان هذا الحيوان؟ كيف تقبلته
خلفاً للرجل النبيل الذى كان؟).. وحين صفعه الرجل ذات ليلة
فألقاه علي زاوية المائدة البلوطية فشج رأسه قررت الأم أن تستجيب
لرجاء عمته وترسله ليقيم معها في المهجر!..
صبيحة يوم رحيله رفض أن تحتضنه! بكت وركعت وتوسلت اليه
ولكنه كان قد فقدها.. أبعدته عن أحضانها بقرار بارد لم يغفره لها

أبدا.. وفي بيت عمته الخشبى الجميل فى «باسادينا» بكاليفورنيا قضى
سنواته العشرين التالية.. فى نهايتها حصل علي الدكتوراه.. وفقد
العمة!
أيام متفرقة خلال السنوات الطويلة قضتها الأم مع وحيدها في
اجازات صيفية قصيرة زارت فيها بيت العمة بأمريكا.. وفى كل مرة
كانت تراقب تطور ذلك الفتى الرقيق الحساس من مرحلة المراهقة..
إلى الريعان إلى العنفوان! (أى عنفوان؟.. وهو كيان لا يمت لأى
مظهر من مظاهر الخشونة أو العنف.. ولا حتى فوران الرجال تبدى
عليه بأى ملمح.. قالت لها العمة: هانى هو أرق من رأيت من رجال
فى عمرى.. له حياء العذارى وهدوء بنت البنوت..)
لكنها رحلت.. والأم طلقت وألحت على وحيدها أن يعود..
[أصبحت وحيدة يا بنى.. وأحتاج لدفء وجودك في خريفى!..
تعال.. وعدنى خالك بأن يعينوك في الجامعة!.. ماذا بقى لك في
الغربة؟].. لم يبق له شىء!
لا أعرف لماذا كرهونى جميعاً.. منذ اليوم الأول! كما لو كنت قد
أطلقت حولي تياراً مغناطيسياً يجتذب الكراهية... من هم؟.. كل
زملائى الأعزاء في سلك التدريس! أما الطلبة.. فلا.. التفوا حولى
جميعا.. لعله كان السبب؟ تظن ذلك؟ ربما.. حيرنى الأمر طويلا
وفكرت جدياً في ترك الجامعة لولاه.. نعم! هو.. زين العابدين...
وحده قد اخترق ستار العداء المسدل حولى.. وصار صديقى!.
وتهدج صوته! صمت واتخذ سمتا يشى بأنه لن يواصل الحديث فى
الأمر...

جرتهما الحكاية طولاً إلي لسان السلسلة.. ثم أحسا بالتعب.. الكورنيش مزدحم.. والرطوبة بللت الجلد والملابس... والبحر يزأر ولا أحد ينصت. فطنين السيارات والناس وصرخات الموسيقى المصاحبة لأغانى منبعثة من مسجلات في كل مكان تجعل هدير الأمواج بعيدا منفياً...

ـــ أين تسكن؟..

ـــ لنا فيلا في لوران.. تعالى معى.. سأعرفك بأمى ونقضى السهرة معاً.. في صوته تأرجحت ذبذبة رجاء.. وفي عينيه نظرة خوف (مم يخشى الرجل الرقيق؟...)

اعتذر لأن رغبة ملحة كانت تقوده إلى جليم..

أما هانى فقد عبر الطريق... وقرر أن يسير بقية المسافة إلي البيت!

الشرفة الكبيرة مضاءة بالقنديل الأخضر القديم.. القنديل عمره من عمر هانى... وحين مات

الأب آمن بأن روحه سكنت داخل الكريستال الأخضر.. فكان كلما تشاجر مع الرجل الجديد أو اخنقه صوت ضحكات الأم المتسربة من حجرة النوم يخرج إلي الشرفة ويضيء القنديل ويتحدث مع الأب حتى فى ليالى الشتاء الباردة.. «كانت نوّة الكرم.. والأمطار تغسل أرض الشرفة وتكوم هو على أريكة البامبو ملتفاً ببطانية لم تحمه ولا القنديل حماه حين غلبه النوم ولم تكتشف الأم ما حدث إلا في الصباح! حمى يذكرها حتي الآن ويذكر خيالاتها... مياه الأمطار تتدفق تحت قدميه (القنديل يتأرجح فى سقف الحجرة ووجوه كثيرة تظهر ثم تختفى...)

من خلفه جاءت الأم... مازالت شقرتها بادية رغم السن والمشيب وبقع النمش التى كست ظاهر يدها.. تمتمت بكلمات عن الحر وجلست بجواره...

ـــ نانسى طلبتك.. تقول أن المحمول كان مغلقا..

ـــ لم أحمله معى أصلا... أمى أنا...

ـــ كلم نانسى!...

ـــ أريد أن أعترف لك بأمر...

ـــ كلم نانسى!

[نانسى هى الأمل.. الوحيدة التى تستطيع أن تقنعه بالزواج فهو يحبها... نعم يا أمى أحبها... ولكن..] لم يزد مرة عن الكلمة... لكن!

اعتمد برأسه بين كفيه وبكى بحرقة... اعتادت هى على بكائه! هزت رأسها.. واكتفت بلمس كتفه..

وهمست: ما بك؟

ـــ أنا قاتل يا أمى!

دائرة منتصف الليل

ثار رفيق وانفجر به صائحاً كثور يخور «نعم وحياة أهلك؟.. اسمع يا يوسف يابن الشفقى.. رأسى يفّتك بها صداع ملعون من صباحية ربنا.. ومزاجى فى الدرك الأسفل... يعنى لا تنقصنى تخاريف جنابك... أى جريمة تلك التى رأيتها؟ انه السكر الذى تعتعك يا روح الحاجة جازية... تهيؤات عرضت لك!.. وحتي لو كان ما تحكيه حقيقياً.. فما لك انت به؟.. تريد أن تذهب للشرطة وتقول لهم انك

رأيت شاباً يجر إلي البحر ويغرقه أفراد العصابة؟.. مجنون أنت أم عن لك أن تتسلى على رفيق الجوينى في يوم نحسه؟..»

ــ ليست عصابة يابن الجوينى.. انه الشاب ابن الرمادى ذو الأنف المعوج وتفاحة آدم.. رأيته لحظة إطفاء شموع العيد وقالوا انه خطيب البنت.. كان معه مجموعة من الحراس لابسى الزى الخاص.. وجروا زين بعد أن طاردوه.. وقتلوه إغراقا فى البحر أم عينى وعيني الدكتور هانى الكردى..

استرخى رفيق فى جلسته واجماً كمن سقط على رأسه حجر... وراح يحملق في صديقه القديم وهو يتمنى لو كان ما يقوله نوعاً من المزاح وحين رأى عبسته وبريق الغضب في عينه أحس بالمصيبة.. وخرج صوته يتحشرج كمن يحتضر: .. أمك وأم دكتور هانى هذا أو أياً كان اسمه.. ثم تناول قرصا من أقراص الحموضة الفوارة ووضعه في كوب ماء.. وجرعه دفعة واحدة..

ــ مصيبة أسود من ليلة كحل!..

أطلت رحاب عبر الصالة فناداها مستجيراً...

ــ تعالى لتسمعى ابن الشفقى في آخر ألبوم غنائى!

أما لهذا المرض من نهاية؟.. حتى الآن لازالت الحسرة تتحرك فى تلافيف أمعائك؟.. كلما رنت أو خطرت وحملت النسمة عطرها ينقلب حالك؟.. عيناها فى طرفتها نحوك بظل ابتسامة تجعد غمازتين على جانبى الفم تعيد فتح الكتاب القديم.. وطريقتها في ضم شفتها السفلى إلى العليا حين تتعمد أن تخفى ابتسامة.. يا ألله! (كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا..)

انتهى رفيق من تلخيص «وكسة» يوسف كما سماها..، وراح يتراقص رغم صداعه...

ــ شوفى الخيبة يا أختى... شوفى الخيبة يا أختى...

ــ أى خيبة يا رفيق؟.. يوسف يفكر صح!..

ــ نعم يا روح ستك؟ انت أيضا؟.. أى صح في هذا الجنون؟ نحن ما صدقنا أن يعفو عنه عبدالرحمن الرمادى ويطلب من رئيس مجلس ادارة الجريدة أمامى بالهاتف أن يعيد المحروس لعمله.. ويجىء حضرته اليوم ليقول أنه يريد ابلاغ الشرطة بجريمة قتل ارتكبها جاسر الرمادى وهو شاهد عليها؟..

بهدوء ملأ صدره مع إحساس بالحذر الوديع.. غمغم بعد أن بسمل «ومن يكتم الشهادة فهو آثم قلبه»..

ــ أهلاً بحضرة صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الشفقى! قسماً بالله لو لم تثب إلى رشدك لقطعت صلتى بك إلى يوم الدين..

قالها وخرج لا يلوى علي شىء..! وبقيت رحاب...

بقيت رحاب ترنو غير ناظرة إليه... في أفق الليل أمر تطارده وتريد استحضاره ليقطع حرج الصمت.. (هل تقطع السنوات خيوط الوصل؟.. وتبقي الذكريات وحدها ترقص علي الحافة؟.. ما كنا لنصمت لحظة حتى فى لقاءات الرمال على شواطىء الغرب الخالية.. ولطالما بنينا القصور وتحدينا زحف أمواه المد.. دون أن نكف عن الكلام... والأنامل تبحث عن لحظات التلامس.. والشفاه تخطف لثمة الخد... وتعرقل الرمال جرى الهرب... تغوص السيقان وتنكفىء يتمرغ... أتذكر).

ـــ أذكر عينيك شاخصتين مع أنفاسك المبهورة تحت ثقل صدرى الجاثم.. وأنت تشيرين برموشك لندفة من سحاب صيفى يعبر «ما الذى تشبهه هذه السحابة في عينيك؟ أنا أراها قطة رومى ترفع يدها لتخمش وجه من يعاكسها!.. وأنت؟.. أجبتك بأول قبلة حقيقية... فاجأتك... لازلت أذكرها كما لو كانت من دقائق... الطعم وملمس شفتيك.. تصليهما في البداية.. ثم الاستجابة.. فالتوتر.. فالانسحاب.. فالغضب..

صمت فأكملت مبتسمة: فالصفعة!

ران علي البيت في لحظة صمت مفاجيء.. وابتردت نسمة تسكعت لحظة ثم نشطت وكان لوقع دقات منتصف الليل في ساعة حجرة المعيشة فخامة في غير محلها.. فكر للحظة في أن يسألها: هل لو قبلها الآن ستصفعه كما فعلت في المرة الأولى؟ ولكنه أحس بسخف السؤال... فقد قبلها عشرات المرات.. لم يحس الآن بأنه يريد أن يفعلها لأول مرة؟..

ـــ أين طفلك؟

ـــ أخذته أمى إلي ملاهى المعمورة!

... لحظة.. وصمت... وسؤال آخر.. «أين اختفى رفيق؟».. سأبحث عنه!

... أتراها وجدت في السؤال فرصة للهرب؟.. كلا.. فستعود! رحاب دائما تعود.. ليلة أن سافرت مع الآخر كتبت له رسالة.. وعدته بأن يوما ستعود وسيتصل فيه ما انقطع.. ساعتها رأت «باطة» دموعه تتساقط علي الخطاب المفتوح، أخذته في حضنها وبدون أن

تعرف أو تسأل عن أسباب بكت معه «بدرى علي كسرة القلب يا يوسف»! صام بعدها عن الأكل حتى هلعت عليه الحاجة جازية وأقسمت انها «عين» والعين تفلق الحجر يا ولاد.. «نعمل لك زار يا يوسف؟»

... عادت رحاب..

ـــ تصور نام؟.. (ينام رفيق وهو يعلم انك وأخته وحدكما في البيت؟... ليس لهذه الدرجة.. هو قد يخلى الجو ساعة لحديث حميم ولكن أكثر من هذا؟.. استحالة...)

ـــ حدثينى عن حياتك فى الغربة!..

مرت سحابة على وجهها ودكنت نظرة فى عينيها وهمست: لا تذكرنى بما أكره...

بعد لحظة اغتصبت ابتسامة.. «ولكنى تعلمت قراءة الكف هناك من جارة هندية... تريد أن أقرأ لك كفك؟»

... هل كانت إشارة مرور خضراء؟ أم هو مجرد كسر لحرج الانتظار؟.. جف حلقه وتثلجت أطرافه وأحس بالأعراض القديمة... مد لها كفه تلمستها.. واحتوتها... ارتجفت نبضتان في شريانين متقابلين... أحس بأصابعها النحيلة أبرد من صقيع أطرافه..

ـــ يداك باردتان...

همست: أعلم!.. أضاف: إذاً فقلبك دافيء!

لم تجب.. نكست رأسها وراحت تحملق فى راحته المفرودة

ـــ خط الحياة عندك طويل.. ستعمر إلي ما بعد الثمانين.. أما خط..

.. ولم يسمع! كان قد أعطى أذنيه لصوتها القديم.. تغنى له ذات

صيف في حدائق قصر المنتزه.. «مش حاتنازل عنك أبدا مهما يكون...» ولكنك فعلت يا رحاب
... خضعت! أعلم أن الزمن الذى تجبر فيه البنت علي الزواج رغم ارادتها لم يعد حاضرا... واعلم أنك أنت بالذات لا يمكن قسرك علي شيء.. واعلم أيضا أن رغبتك في التضحية من أجل أبيك بالزواج من الرجل الذى أنقذه ليست هى كل الحقيقة.. وأذكر ليلة تشاجرت مع رفيق واتهمته بأنه لم يساعدك فى الافلات من الزيجة الصفقة.. وحين قسوت عليه في الهجوم بادرنى بالجملة التى ألقمتنى كل الأحجار: رحاب حسبتها بالعقل يا يوسف.
يا شفقى... ليست المسألة كلها إكراه كما تتصور! أفق لنفسك يا حبيبى!
... أعلم هذا كله يا رحاب ولكنى أغفر لك.. وسأظل أغفر لك.. غفرانى بلا ضفاف.. فلا تعديه ضعفاً...
أفاق علي صوتها تناديه: لست هنا!.. احتجاجها هو الذى حمل له الدعوة.. عيناها تلتمعان بنفس الطريقة التي كانت تلهب حواسه..
— تذكرين «كابينة» عمتك بشاطىء عايدة.. وتلك الظهيرة في خريف أكتوبر؟..
أومأت أن نعم! وكيف تنسى؟.. «الشاطىء قد اقفر.. وشمس واهنة تتأرجح خلف سحابات تبعثرها ريح خريفية يمتزج فيها دفء باق من صيف راحل بلسعة برد من تباشير الفصل القادم..! وكانت قد أسرت له في الهاتف بأنها تحايلت وسرقت مفتاح الكابينة و«الكارنيه»..! ارتدت يومها بنطلون جينز «استريتش» وأطلقت

جدائلها حرة.. وحين أمسك بخصلة ولفها حول أصابعه أدارت له رأسها وبادرت بتقبيله.. لأول مرة تقبله هى وتقوده بشفتيها إلي عمق لحظة يتمدد فيها السحر لساعات..! من مذياع قريب... كان عبدالوهاب يصدح بأغنية قديمة.. كم بنينا من حصاها أربعاً.. وانثنينا فمحونا الأربعا.. وحدونا الشمس فى مغربها.. ظللنا هناك حتى أطبق المساء..
آه يا رحاب.. أتذكرين كم مرة كتبنا إسمينا على الرمال.. وسفت عليها رياح المساء؟... فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى؟.
هل تحدث وحده أما تحدثا معا؟.. اشتبكت أصابع اليدين لدرجة الألم.. وأغمضت عينيها وعقدت ما بين حاجبيها وارتسم على وجهها ألم مخضب ببقايا خجل لم تفقده أبدا... ومن بين جفنين مطبقين وعبر أهدابها السوداء فرت دمعتان.. انحدرتا على خديها المضرجين وافترت شفتيها عن استغاثة خرساء.
... كم افتقدتك يا يوسف! كم هاجتنى ذكرياتى معك حتى أمرضتنى.. كم كنت هناك أسهر من أجل أن أخلو إليك وأناجيك مع إنتصاف الليل كما كنا نفعل في الاسكندرية...
«فى الثانية عشرة تماما سيختلى كل منا بنفسه منعزلا عن كل من حوله ليفكر في الآخر.. بمداومة التركيز يا حبيبتى سيمكننا أن نتخاطر..»
أتعلم يا يوسف اننى اتصلت بك روحياً أكثر من مرة؟ واستطعت أن التقيك حتي بالجسد مرتين؟...
... يعتصر يوسف صدرها اللاهث في أحضانه! ترجوه أن يترفق بعظامها! يمسك رأسها بين كفيه... تقفز فجأة نافرة.. «أنت

وحش»... أصابعها تمسح شفتها الدامية

... يقف رفيق فى مدخل الآرش عابساً..

ــ أبوك قد يحضر الليلة ليناقش معك حياتك المحطمة.. ولا يجب أن يرى المحروس هنا.. ولابد في حضنك.. وانت ياباشا... خالتى جازية فى انتظارك!.

ألقى بنفسه فى مركبة الترام.. وأسند رأسه لزجاج النافذة.. كان جبينه يتفصد بعرق بارد وشفتاه مخدرتين.. والليل قد أمعن بعد المنتصف!

نهار مفعم بالأشياء الطيبة

«رمانك طاب يا ليلى.. رمانك طاب حاجة هايلة».. صحت أذنك قبل أن يفتح عينيه... الصفير البعيد ليخت بحرى قريب.. وصوت الطبلة.. وتصفيق نسوة فرحات.. وضحكات تقطعها صرخة.. وتندفع إليه راما.. منكوشة الشعر محمرة العينين..

ــ هل قلت لكم يا عالم انى أريد أن «اتجنز»...؟ دعونى لحالى وإلا ومقام سيدى المرسى لألقين بنفسى في المالح وأجيب لكم مصيبة..

تهرع باطة داخلة خلفها: قلقت منام أخوك يا مقصوفة الرقبة! ماله رجب الطحلاوى؟ جدع ابن حلال وكسيب ووحدانى.. لا أم ولا أخت... يعنى لن تكون لك حماة تنغص عيشتك!.. ثم ان الأمر قد تقرر ولا فائدة من عنادك.. حسن الغريب قرأ الفاتحة مع الولد!

ــ الحقنى يا يوسف! تريد أن تتركنى لأذهب إلى الموت بقدمىَّ..؟

قالت له أمه الحاجة جازية ان أهل الدايرة بدأوا يلوكون سيرة البنت وحكايتها مع «زكى» صبي الفران!.. وانها متفقة مع حسن في الرأى (البنت لابد من الاسراع بسترها..

.. رمقته حسن الغريب بنظرة ساخرة.. (نعم يا أحلى؟.. وما هو العيب في أن أرحب بالجوع واقرأ معه فاتحة؟)

... انت حقانى يا حسن.. ولابد أن يكون لنا رأى! لسنا قطيعك الذى ورثته عن الحاج خليل الشفقى وتقوده حيثما تريد!

ـ تسمع أخيك يا سيد مرسى؟

سيد المرسى ليس محايداً فامرأته حلمية هي بنت عم رجب الطحلاوى! فضلا عن ان رمانة قد تعدت الثامنة والعشرين وأصبحت علي شفا حفرة من البوار «والبنت يا يوسف يا خويا ليست عاقلة.. هى مطيورة كما نعرف جميعا.. وحسن الغريب في مقام أبيها يعرف مصلحتها ولا يهاودها..»

ويضيف حسن انه استشار علي الأحسن وحصل علي موافقته بدوره..

ــ أخذت رأى الجميع إلا أنا يا حسن؟

ــ وماذا فيها يا ابن بطن أمى؟.. رأيك لن يخرج عن احتمالين.. توافق مثلنا نحن الثلاثة... أو ترفض... وإذا رفضت فنحن أغلبية.. وتحيا الديمقراطية!

ولولا أن رن جرس التليفون لحظتها لكان له مع المرسى شأن!.. ناوله حسن السماعة

ــ يقول المتحدث أنه مدير تحرير الصحيفة!

بلهفة تلقى يوسف خبر حفظ التحقيق معه واعادته لعمله بعد انهاء «الاجازة المفتوحة»

صفق حسن بيديه طرباً «أرأيت! فأل العريس!»

قـرر أن يعود إلي المنزل فـيـعد حـقيـبتـه ويسـافر في نفس اليـوم إلي القاهرة.. وسيعفيه اضطراره من التورط فى مشكلة «راما».. عليه فقط أن يطيب خـاطرها ويستـمهلها حـتي يعيـد حسن الغـريب النظر في المسألة.. «وسيكون كله خيرا بإذن الله!»

... اوعى تكون بتـضـحك علـىّ يا يوسف! «عـيب يا رامـا.. ومـتى فعلتها؟»

.. وقبل أن يغلق حقيبته.. نادته باطة...

ـــ الأستاذ هانى حضر وأدخلناه الصالون!

... نهار مش فـايت!... والأمر لابد أن يواجـه بحزم.. فالسـيد هانى سيأخذ على المطرح وتصبح حكايته حكاية...

وجده مخـتلفا تماما عن ليلة الأمس..! وجـهه الشاحب معـقودا علي تعبـير عابس مـصمم.. وشفتـاه الرقيقـتان مزمومـتان بحدة حـتي لقد عجب يوسف كيف يتكلم دون أن يفتحهما.. يداه فقط ظلتا تشابكان الأصابع العشرة...

ـــ هل تشاركنى فى قرار اتخذته؟..

ـــ أى قرار يا دكتور؟..

... سأذهب وأسلم نفـسى للشرطة يا سيد يوسف.. وسأخـبرهم بأننا

ـ أنا وأنت لا نسـتطيع كـتـمـان الشهـادة.. واننا رأينا مـصـرع زين العابدين ورأينا القتلة!.

■ الفصل السادس



رغم رقته ورفاهة حسه وهشاشته البادية إلا انه لاح ساعتها كمنحوتة اغريقية لإله العناد الغاضب.. وبدا أيضا قابلا للانتهاك الى حد الضرب.. ادرك يوسف لحظتها ما يحنقه على الرجل.. فيه ما يغريك بالقسوة ويستثير ما تخفيه من سادية.

- امهلنى يا دكتور حتى أدرك مصالحى فى القاهرة ثم اعود اليك.. خذها فرصة تعيد فيها التفكير.. فكر على هذا النحو المنطقى.. لقد شاهدنا شيئا.. ربما كان شروعا فى قتل .. وربما تم القتل بعد ذهابنا.. حسن.. إذا فنحن فى أسوأ الفروض مجرد شاهدين.. اذا استدعينا للشهادة نشهد ونقول ما رأيناه على شاطئ البحر فى ظلمة الليل.. افراد يطاردون شخصا وينزلونه البحر .. ربما كان مزاحا.. أو لم يكن.. فالرؤية غير قاطعة ولا تستطيع ان تقسم عليها.. حسن.. لن نتبرع باستنتاج يفسر ما رأيناه، ولن نتهم اشخاصا بعينهم.. حسن.. المهم اولا ان تستدعينا جهات التحقيق، اما التطوع بالشهادة فهو تصرف أخرق.

لم يجب هانى.. ولم يطرف بعينه، ظل ناظرا اليه والتماعات هازئة تبرق فى عينيه بشكل جارح.

- لم تنظر لى هكذا؟ وفيم صمتك؟ لعلك لم تقتنع بوجهة نظرى..
- أمقتنع بها أنت؟
فاجأه السؤال فأحنقه.. ما هذه السفسطة؟ كيف تكون وجهة نظرى ولا اقتنع بها؟ .. ومن تكون بسلامتك حتى اخافك فأناور معك والتف حول معانى الكلمات؟.. يخيل الىّ انك مهووس الى حد ما..
نعم.. لست فى حالة طبيعية.. ربما تأثرت بشدة لاحداث تلك الليلة؟.. أنصحك بالاخلاد الى الراحة والنوم طويلا.. فالهالات الداكنة تحت عينيك تشير الى ارق ينهكك.. وسأكتب لك اسم اقراص منومة حديثة جربتها.. ستعطيك جرعة نوم طويلة تصحو منها صافى الذهن قادرا على التفكير بشكل افضل..
لماذا بدت له ابتسامة هانى ساعتها جارحة مهينة؟.. اى اتهام حملته؟.. وماذا اقترف حتى يتهم؟ .. الغضب يتصاعد ولا يهدأ مع كل خطوة فى طريقه لغرفته ليحضر اسم الاقراص المنومة.. وفى طريق العودة الى ضيفه كان ضيقه به قد بلغ الذروة وقرر مع اخر خطوة ان يطرده.. ولكن .. كانت الحجرة خالية .. وهانى غير موجود.. جن جنونه.. دون ان يعرف السبب.. وراح وهو يقفز درجات السلم يعنف نفسه.. لقد كان يوشك ان يطرده فماذا أحنقه فى انصرافه؟ أكان يريد ان يستمتع بطرده؟ كلا.. اغرب ما فى الامر ان مشاعره تتغير من النقيض الى النقيض تبعا لوجود هانى معه أو غيابه.. أمر يورث الجنون.. فهذا رجل لم يعرفه إلا منذ ساعات.. يومين تقريبا فكيف استطاع ان يحتله بهذا الحضور الكثيف لدرجة ان يجعله يجرى بطول داير البحر ثم شارع الترام امام حلقة الانفوشى حتى ينقطع نفسه وتخور ساقاه.

دافع قهرى ملح سيطر عليه وتملكه ليبحث عن هاتفه أو منزله.. أمسك بالدليل فى محل المانيفاتورة بشارع العطارين وراح يبحث فى حرف الهاء..
رمقه سيد المرسى من بين اجفانه الناعسة وهو يتمتم: عمن تبحث يا يوسف؟
واجاب حسن ساخرا: يبحث عن ابرة فى كومة قش..
هاهو .. هانى محمود الكردى .. هانى محمود الكرداوى .. أهو كردى أم كرداوى؟ لا بأس .. سيحاول مع الاثنين..
هتف بحسن يسأله قبل ان يخرج.. أتسافر غدا من غير شر؟
وصل الى الفيللا واطمأن حين تعرف على سيارة هانى.. رابضة فى ممر جانبى مجاور لباب حديقة صغيرة تحيط بمقدمة الفيللا فى شبه قوس.. افرع الياسمين واللبلاب تتدلى على طنف الشرفة الكبيرة حيث ظهر جزء من سيدة المنزل الجالسة تقرأ بجوار السور.. قاده الخادم المسن الى صالون متسع فى صالة الدور الاول.. وفى انتظار هانى تجرع مرارة الندم.. ما الذى أتى به؟ بأى علة سيتعلل؟ لكن الرجل الرقيق هش له بترحاب حار ولمعت عيناه بفرحة حقيقية دون أن يظهر أى دهشة.
- جئت فى وقتك تماما لتصحبنى فى زيارة لأناس سوف تحبهم!
... وطوال الطريق رفض مراوغا ان يخبره عن هؤلاء الناس، بدا فقط سعيدا كطفل يلعب لعبة الاستخفاء يكاد يصفق طربا وهو يلمح امارات الفضول فى عينى يوسف ويتسمع نبرة الإلحاح فى صوته..
أما يوسف فقد تضاعف توتره.. كان اصلا قد عانى مشاعر سلبية تجاه

منزل صاحبه .. رغم الاتساع والفخامة وكل مظاهر الثراء والذوق السليم.. كان مكانا «موحشا» باردا.. يقبع فى مساحة اللامبالاة التى تميز سكون الاضرحة.. قبلها كان يضيق باندفاعه غير المبرر وإلحاحه فى البحث عن عنوان هانى ورغبته المحرقة فى العثور عليه.. ثم ضايقه اكثر ان يتجاهل الاخر ويتعامل معه كأن لم يكن بينهما هذا اللقاء القريب.. فقرر ان يعاقبه بالمثل ولا يسأله عن سبب اختفائه المفاجئ من حجرة الصالون بمنزل داير البحر.. وبركن عينه راح يراقبه اثناء انهماكه فى القيادة.. لماذا يبدو سعيدا منتشيا الى هذا الحد؟ ربما كان بصحبه للتعرف على فتاته؟ ولم لا.. رجل فى مثل ملاحته وثرائه وموقعه الاجتماعى كأستاذ بالجامعة لابد وأن يكون محط انظار الفتيات وموضوعا لأحلامهن..

عبرت السيارة منطقة الرمل عرضا واشرفت غبريال وباكوس.. ومن شارع عريض مشعث المعالم بدا كسوق شعبى يزخر بالبشر والنداءات واصوات الاغانى السوقية المنبعثة من عشرات المسجلات فى محلات «العصير» والمقاهى الكثيرة وفوق عربات عرض البضائع العشوائية.. من هذا الشارع انقطعت خيوط ارتباطه بالضفة الاخرى.. هناك حول الفيللا الباردة والبنايات الموحشة .. هانى بالذات بدا مختلفا لدرجة اذهلت يوسف وجعلته يستعيد صورة الرواية الكلاسيكية عن دكتور جيكل ومستر هايد.. دفق من الحيوية يسرى فى اعطاف الرجل الذى لم يعد رقيقا بمجرد ان دلفت سيارته لقلب الحى الفقير.. واتخذ وجهه سمتا مغايرا لما كان عليه قبلا بدرجة محيرة حتى لقد تساءل يوسف .. هل كان الوجه الاول قناعا أم ان ما

يراه الآن هو القناع؟ .. حتى نظرته الشاردة الحالمة لم تعد ولا عاد صوته رخيما هامسا.. برقت العينان بوميض الظهيرة المتوهجة.. وعلت نبرة فى الصوت تكاد تنم عن خشونة الثقة والاعتياد.. فهل هو نفس الرجل؟

نصف دائرة الرجل الآخر

من الشارع العريض تدخل السيارة الى شارع اضيق واقل ازدحاما ويختار هانى مكانا مجاورا لورشة اصلاح سيارات يلقى على صاحبها السلام فيبادله حوارا وديا يشى بألفة ومعرفة قديمة.. ويترك السيارة فى حماه.

يصطحب يوسف متأبطا ذراعه، وقد تخلى عن نزقه وفرحته بشقاوة ومتعة الاستخفاء .. تحول بريق الفرح باللعبة الى وميض يستعيد الحزن الداكن، كلمعة لؤلؤ اسود يتدحرج فى طبق فضى من حارة الى حارة.. فى جو مفعم بروائح الفلافل المعجونة بماء السلاطة البلدى، والطرشى وشواء السمك.. وبخار الزيت الذى يقلى الباذنجان والفلفل.. وبجوار مخبز صغير للعيش البلدى.. منزل صغير من طابقين يختلف عن البيوت المجاورة فى حداثته ونظافة نسبية تعطيه حضورا خاصا.. اسرعت امرأة تضع فرشا تبيع عليه ام الخلول بإفساح الطريق امامهما للباب.. وببهجة من اعتاد رؤية هانى تهتف: تفضلوا .. أهلا وسهلا.

صورة الفتى الحنطى بعينيه النجلاويين وابتسامته الساحرة تتصدر حائط الصالون متشحة بشريط اسود.. السواد يسربل الجميع.. الاب والام.. والاخت.. والاخ الصبى.. ولم يكن سواد الاردية فقط.. فى

حدقات السهد التى قرحتها سخونة الدمع النازف ابدا لا يجف ولا ينضب له معين .. فى التعبير الملتوى بقسمات الوجوه يرسم عليها ذلك الحزن الغاضب الرافض للعزاءات الرخيصة والمشاركات المجانية.. فى الشفاه المزمومة المطبقة فى صيام غير معلن.. فى ترنيمة التعديد الموروثة تنتقل بين صدور اربعة ولا يسمعها الآخرون.

راح الامير .. لابس حرير.. خطفه الملاك .. زفه لقضاه، قال الطبيب .. جرح الحبيب .. يكويه بكاك.. والنوح دواه.

– روح زين تأتى كل مغرب وتقف فى شباك حجرته .. طير ابيض لا اسم له ولا صنف ولا جنس.

نطقها الاب، وامنت الام، ونكست الاخت رأسها لكى لا يرى الرجلان دموعها.. والاخ الصبى يقول «آه يا خويا».. ويعاود الاب الكلام:

– روح زين تعاتبنى يا دكتور هانى.. تقول لست ابى لو تركت دمى هدرا.

– لن نترك دم زين ليهدر يا عم امام.. تعاهدنا انا والاستاذ يوسف الشفقى ألا نترك قضية ابنك حتى يلقى القتلة جزاءهم.

ترتجف عضلة فى خد الرجل المكلوم.. ويتطلع الى يوسف بابتسامة استطلاع متوسل:

– تعرف زين يا ولدى؟

رأيته ليلة بكاملها ايها الرجل الطيب.. خطف بصرى كما فعل مع الجميع.. وكأنه تلك الميدوسا الاغريقية التى تحيل كل من يجرؤ على النظر اليها حجرا.. عاشرته عمرا فى ساعات.. ورأيت العرافة تقرأ كفه وتبكيه قبل ان يحم قضاؤه.. وألمحت بالفصل الاخير من قصة

حبه التعسة.. ثم شهدت صفحة كتابه الصغير تتمزق وتلقى لوحوش البحر الليلية. وتتحول المزق الى زهور من بنفسج تنبت فى مسام الجسد.. بينما تتسلل داخلنا نحن الاحياء الخونة فروع الاشواك المسنونة تنشب مخالبها الابرية داخل ارواحنا.. وتمرق فى دمائنا كجرثومة علة لا شفاء منها.. لقد مرضنا بابنك ايها الشيخ الحزين..

الأم تقص –ربما للمرة الالف– قصة فتاها منذ ان خرج من رحمها والى ان ودعها مساء يوم الرحيل.

– امسك بكلتا يدىّ وقبلهما واغرورقت عيناه بالدموع، وقال لى ادعى لى يا أمى لأعود منصورا.. ضحكت وسألته .. أهى الحرب يا زين؟ سقطت دمعة على يدى.. أوجعنى قلبى فحضنته.. حضنته بكل ما فى هلع الام من قوة حتى اذبته فى دمى المتدفق فى ضرعى ومازال صدرى يحن الى الآن وينزف لبن السرسوب.

دموع الام تسقط فى اعماقه كالجمرات.. يحن الى صدر الحاجة جازية.. أيذكر حقا شهور الرضاع والاشباع ام هو الحنين الى النكوص والتمترس داخل الرحم؟ .. تترنم له جازية وهى تمسح على شعره وتهز وركها المثنى تحت رأسه.. هو هو .. ننه نام وندبح لك جوزين حمام.. لما قالوا دا ولد.. اتشد ضهرى واستند.. سألوا مين عينه كحلا.. قلت لهم يوسف الاحلى.

تواصل ام زين حديثها وقد احتضنت صبيها الاخر.. واب يغمغم بآيات أو ادعية لا تسمع .. وفى البلكونة التى يفتح عليها شباك الصالون العريض.. يقف هانى مع زينب الاخت منكسة الرأس تنصت ويتدفق هو فى حديث لا ينتهى.

- ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
لم يجبه وسأله عن نواياه.
- لا مفر من الذهاب الى القاهرة أولا.. تستطيع ان تتقدم انت أولا الى النيابة .. وبعدها سيرسلون فى طلبى .. وسأحكى ما رأيت.
- شىء طيب ان تتخلى عن حذرك ومراوغاتك وتنتصر للنصف الطيب داخلك..
- وما بال نصفى الاخر؟
- لكل منا نصفه الاخر يا صاحبى.. نصف يتعامل به مع الضرورة واكل العيش ومراعاة الظروف والاضطرار الى المساومة واغضاء الطرف..
- لن ادخل معك فى جدل حول البديهيات ولكنى سأسألك مرة اخرى.. ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
حاصر السؤال هانى.. فشرد طويلا وكأنه يستجمع تلك الاشتات التى تتوزعه..
.. ماذا يريد هذا الصحافى ان يعرف؟ وهل يدرك مثله حقيقة زينب.. وقضية زينب؟ ألم ير ان لها نفس اللون الحنطى.. سمرة الخمرة فى النور المذاب.. ولها نفس العينين الآسرتين.. المحمل طرفهما بالحور القاتل الذى اباح دم أبى الطيب؟ ان من احب زين لا مفر له من ان يعشق زينب!
- أتعرف ماذا يعنى ان تنقده هذه الاسرة يا يوسف؟ اب يغسل الكلى ثلاث مرات فى الاسبوع وام اقعدها التهاب المفاصل وشقيق فى الاعدادية.. يعنى ان المعاش الذى ستحصل عليه من الجامعة..

والمرتب المضحك الذى تتقاضاه زينب من عملها بشركة الكهرباء.. لن يكفيا لنصف شهر.
- وأنت تريد ان تساعد؟
- هؤلاء الناس يحملون كبرياءهم كالصليب.. ربما لأنهم لا يملكون سواه.. ولن يقبلوا صدقة من غير ذى صفة.. ولا مفر من أن تكون لى هذه الصفة.. نعم وسأفعل... دائرة

المدار خط وهمى

التكييف البارد داخل القطار التوربينى يجعل من لحظة النزول الى رصيف محطة باب الحديد محنة حقيقية فأن تلقى بنفسك فى فوهة فرن بعد ساعتين من خدر البرودة وتعتصر لتنزف كل مسامك بالعرق.. فلابد ان يساورك هذا النوع من الاكتئاب الذى يلقى بظل كثيف على ليلتك وما يتبعها من ايام..
وكانت الفكرة التى تساوره فى كل مرة ان صيف القاهرة اللاهب قد صار بعضا من سماتها حتى ليصعب تصورها بدونه .. يبالغ عمرو الكاشف زميل المهنة وصديقه الاقرب فى القاهرة فيؤكد ان حر هذه المدينة له بعض من جمال خاص.. وطعم مميز المذاق ربما كان سرا من اسرارها الملغزة..
تحول الموضوع الى استقطاب متعصب بين حزب القاهرة وحزب الاسكندرية دفع عمرو -المحب فى اعماقه للاسكندرية- الى الجهر بموقف مناقض تماما.. نعم لا احبها.. ولا اطيقها .. ولا احب ان تنظروا لى بهذا الاستنكار وكأنى غلطت فى البخارى.. نوآتها تزعجنى فى الشتاء والرطوبة تدفعنى للجنون صيفا.. وقبل كل شىء

انا حرّ.. وانتم همج شموليون متعصبون.. رغم تشدقكم بالحرية وصراخكم ضد القهر.. تمارسونه فى علاقات الصداقة والزمالة والحب والزواج.. أنتم منافقون ازدواجيون ولا جدوى منكم.. تصلح احوال البلد كثيرا اذا وضع امثالكم فى اكياس القمامة.

.. وللفندق الصغير الاكثر شبها بالبنسيون شرفة تطل على الشارع العجوز بمبانيه ذات الطرازين الايطالى والفرنسى، والشرفة تحولت الى ما يشبه الروف المعد كمشرب مفتوح.. اصبح رغم ضيق مساحته ملتقى لشريحة متنوعة من الصحفيين والفنانين واخرين لا يخلو بعضهم من شبهة ومثل الجريون والاوديون .. كان الباك دور .. وان لم تتحقق له شهرة ريش القديم ويدعى عمرو الكاشف انه مؤسس «الباك دور» وصاحب الفضل فى تحوله الى منتدى وملتقى ومقهى.. واى شىء اخر .. ولا يحاول احد ان ينازعه هذا الزعم أو ينافسه على تصدر جلسات المساء والسهرة. وليلتها كانت سخونة الطقس قد اثارت شجارات بين الكاشف «ومنعم الصيرفى» صاحب المكان بسبب تلكؤه فى تنفيذ المشروع الذى اقترحه عمرو «بتقفيل» الروف وتكييفه خاصة وقد جمع له من رواد الملتقى مساهمات مالية لها شأنها.. ودخل يوسف فى لحظة احتدام الشجار.

عمرو بطبيعته العدوانية ولسانه السليط يتهم منعم بتبديد المبالغ التى جمعها له..

– أعرف انك صرفتها على المشبوهات اللاتى يلتصقن بك كل ليلة واللاتى يسئن لسمعة المكان.

ويثور الصيرفى مدافعا عن نظافة ذمته، وطهارة البنات اللاتى يعشقن

الفن ويبحثن عن فرصهن ويتطوع هو لحمايتهن من غوائل المدينة وبلاويها.. ثم يعرض استعداده لرد الاموال التى جمعها عمرو بعد خصم ما دفعه من عرابين للشركة التى ستقوم بتقفيل المكان.

– اى شركة يا عمرو؟ من تظننا يا صيرفى؟ مختومين على القفا أو ان البانجو الذى تعبق به المكان كل ليلة لحس عقولنا؟

.. يتدخل يوسف فى لحظة ما قبل الاشتباك اليدوى ليفصل بين الرجلين اللذين لن يلبثا بعد اقل من ساعة ان يتبادلا الضحكات والقفشات ثم ينتقلان الى حجرة بالدور الاسفل مع باقى شلة البوكر ليلعبوا حتى شروق الشمس.

.. متهللا يواجهه عمرو بعد انفضاض الشجار.. سرك باتع يا يوسف يا شفقى.. لا حديث لكل من فى الجورنال إلا عن الامر المفاجئ الذى اصدره فوزى الشماع ليس فقط بحفظ التحقيق معك واعادتك متعاملا بالقطعة.. بل بتثبيتك محررا معينا ضمن الهيكل الوظيفى للمؤسسة.

.. لم يستطع يوسف ان يصمد طويلا امام نظرة عمرو الكاشف المتفحصة المتسائلة.. فهمس له.. احتاج لمشورتك فلننفرد فى حجرتى افضل.

عودتى هذه المرة الى القاهرة ليست ككل مرة.. وانا نفسى لم اعد يوسف الشفقى الذى كان قبل ايام قلائل.. كأنى رحلت الى ارض غريبة فقدت فيها زادى ومتاعى.. ورجعت وقد ضاعت هويتى وذاكرتى.. أو كأنى خطوت على ارض رخوة سبخة فغصت فيها حتى عنقى..

- ماذا حدث يا أخيب خلق الله؟
- ليلة زين العابدين امام وهالة الرمادى.
... السماء مطبقة بظلمة كثيفة خارج اطار النافذة.. ودخان السجائر «الملغمة» يتماوج نحو مسار الضوء الكهربائى متباطئا متثائبا.. الهواء راكد.. وحبيبات العرق تلمع ببللورات ملحية تعكس شعيرات ضوئية.. بدت لعينى يوسف استجابة فظة لما تكسر فى جفونه من نعاس مؤجل.. لم أنم الليلة الماضية تقريبا.. واعتقد اننى سأسقط فى بئر الهجوع بعد ان انتهى من رواية ما حدث.. كيف استطيع ان اشطر نفسى الى رجلين فى نفس الزمن أحدهما يروى قصة ما حدث فى ليلة مارينا .. والاخر يراقبه ويفكر فى اشياء اخرى لا صلة لها بالحزن النبيل الذى يحسه الاول؟.. فلتكف الآن عن التلاعب بنفسك .. فقد شارفت القصة على نهايتها.
... انهمك عمرو الكاشف فى لف «صاروخ» جديد..
- ما بقى من الصنف يكفى بالكاد لهذا الصاروخ.. وسنقتسمه.. ألم تحضر معك (ماتيريال) من الاسكندرية؟
- أوصيت صديق ليجلب لى من تاجر فى جبل ناعسة.. ولكنه لم يرد حتى سافرت!
... شعر بغيظ شديد من صاحبه.. فقد افسد الجو المأساوى الذى نظمه له وكأنه ملحمة من ملاحم التراجيديا الاغريقية.. وقد اجاد الاداء حتى اغرورقت عيناه بدموع حقيقية حين وصف له لقاء الامس بالعم امام وباقى اسرة الفتى الحنطى..
- سمعت الحكاية ولم تعلق.. أيبدو ما حدث لى تافها الى هذا الحد؟

... مر عمر بحافة ورقة البكرة المشرشرة على لسانه يبللها فى اخر مراحل اعداد «الصاروخ».. وسدد نحو يوسف نظرة مستقيمة ناعسة تنم عن اهتمام متوجس..
- ما حدث لك هو فرصتك الكبرى لتنطلق الى اجواز الفضاء الصحفى.. اصغ السمع وخذ كلامى بأقصى جدية تستطيعها .. ما يقلقك الآن هو خوفك من ان تشهد بما رأيت مع صاحبك استاذ الجامعة الذى ذكرته.. فيغضب عليك آل الرمادى.. وكما اعادك عبدالرحمن الى عملك بالصحيفة يتوسط فى التنكيل بك.. أليس كذلك؟.. نعم.. حسنا.. العقل والمنطق يقول ان عليك المبادرة بالهجوم.. واستخدام ورقتك الرابحة.. ساوم الرمادى من جهة.. ولوح فى نفس الوقت لفوزى الشماع بأن لديك قصة ستهز البلد من ادناها الى اقصاها.. ولك فى النهاية ان تختار افضل العروض.. لا تحملق فى وجهى هكذا وكأنى اسمعتك كفرا.. عليك ان تدخل المدار وتسبح مع الاجرام وإلا امتصك ثقب اسود وحولك الى ذرات من غبار نجمى يسبح فى السديم بلا غاية وحتى يصل تمدد الكون اقصى مداه فينفجر وتقوم القيامة.
- أنت مسطول .. ما تطلبه منى يحتاج الى لاعب سيرك يسير على السلك المشدود بدون عصا التوازن.. وبدلا من ان احقق المجد المنشود سأهوى وارتطم بالارض وتدق عنقى!
... ناوله عمرو الصاروخ بعد ان عب منه نفسا عميقا توهجت به زهرة اللفافة وتساقطت منها شعرات مشتعلة تخمد سريعا.
- انا مسطول وانت مخلول! قسمة الحق..

ومع قهقهة «السُطل» انداحت افكار يوسف كتيار متسارع. القى الكاشف بذرة راحت تتقلب وتتجوهر وتتزايد سرعتها من حركتها الذاتية..

ماذا يساوى مبدأ اخلاقى فى مجتمع يتجه الى نسبية الاخلاق؟ .. لقد قال فوزى الشماع ذات مرة فى اجتماع الديسك ان الصحفى الناجح ليس اكثر من نهاز للفرص! اذا فلهذه المهنة مبادئها الخاصة التى قد تختلف مع مبادئ اخرى لمهن مخالفة.. ثم ان شروط النجاة لمن يلج الغابة أولها ان يكون له مخلب وناب.. ومن العبث ان تترك نفسك يا يوسف يا ابن الشفقى تحت ثقل من يفوقونك وزنا ليدعوك! فلتكن ذئبا وسط الذئاب.

.. وفى الصباح امدته ليلته الطويلة بمزاج معتدل يميل الى التحدى وقبول المخاطر.. وفى الطريق كان يفكر فى وسيلة تتيح له ان يقابل فوزى الشماع ليلقى بالقفاز الاول.. ولكنه فوجئ حين وصل باستدعاء عاجل يأمره بالمثول فى مكتب رئيس مجلس الادارة..

ورئيس مجلس الادارة هو نفسه رئيس التحرير.. سطوة مهولة لهذا الرجل الذى يعرفون جميعا مدى قربه من عصب النظام الحاكم.. هو نفسه يبتسم راضيا كلما ذكر امامه انه الصحفى المفضل.. ولا ينفى انه قد يكون الكاتب الحقيقى للخطب الهامة التى تلقى على الجماهير فى المناسبات السياسية الكبرى.. دخل يوسف وبمجرد ان عبر الباب الفخم احس انه يغوص فى قلب عالم آخر .. لم يسبق له ان دخل هذا المكان.. ولم يخطر فى مخيلته ابدا ان يكون هناك فرد بالغاً ما بلغ من الخطورة والاهمية مالكا لكل هذه الفخامة التى بددت سريعا مزاج الصباح.

رمقه الرجل الاصلع -الصغير القامة رغم خطورته- بنظرة من تحت جفنين مسدلين الى منتصف العينين، وظل لا يمكن اقتناصه لابتسامة مراوغة.. لم يرد عليه التحية.. ولم يطلب منه الجلوس.. وامسك بسيجاره الكوبى الضخم ومرره تحت انفه الذى ارتجفت فتحتاه فى انتشاء حسى كأنه يتشمم عطر امرأة يراقصها.. وتناول قاطع السيجار.. وقضم به الغلفة المسدودة.. ابتسم يوسف وقد شرد للحظات وعقد مقارنة بين قطع مقدمة السيجار وقطع غلفة الذكور اثناء الختان.

قست نظرة الشماع حين ضبطه يبتسم.. ولأمر يعرفه وحده كان لابد ان يعنفه..

- لعلك تلقيت الدرس وتمثلت عبرته.

- تعلمت ان انهج نهجك وانت المعلم العظيم..

.. سر الرجل للنفاق الفاقع.. وراح يشعل السيجار بعود ثقاب واحد ظل بين اصابعه حتى كاد ان يلهب اصابعه.. والقاه حطبا اسود ملتويا.. واجتذب نفسا اطلقه سريعا..

- كيف رضى عنك المهندس عبدالرحمن الرمادى؟

اشار له ليجلس قبل ان يجيب وبدا واضحا انه يريد تفسيرا وافيا مفصلا..

- زرته فى منزله بمارينا واعتذرت له..

- اذا تعترف بأن ما ذكرته فى المقال -المشكلة- كان خاطئا؟

برق له الجواب السديد كومضة الهام قبل ان ينزلق فى مهوى الردود التقليدية.. وبدا من اتساع حدقة الشماع انه يتلهف على واحد منها

يتيح له ان يصدر حكمه النهائى على هذا الشاب «الألعبان» لكن اجابة يوسف فاجأته حقا..

– كلا .. لم يكن ما ذكرته خاطئا..! واعتذرت للرمادى بك ! التعقل والحكمة يفرضان الانحناء امام العاصفة..

– أنت منافق.

صفعه بها الشماع دونما حدّة أو غضب .. كانت باردة كثلج يلد ولكنها ارجعته سريعا الى فراج الصباح.

– بل انا نهاز للفرص.. وهذه سمة الصحفى الناجح كما حددت بنفسك يا فوزى بك.

.. اتسعت ابتسامة الرجل..

– شاطر ! ولكن..

انتظر برهة انخلع لها قلب يوسف!. «استر يا رب» من لكن هذه!

– اى مشكلة تورطت فيها بالاسكندرية؟

ورفع ورقة امام عينيه..

– استدعاء عاجل للمثول امام النيابة العامة فى الاسكندرية..

... فعلها هانى ولم ينتظر كما وعدك.! الامر لله!

■ الفصل السابع



خط الرجعة

«فيم ذهبت وفيم أتيت يابن أبى؟ لم تتم يومين بالقاهرة.. هل رفتوك مرة أخرى؟.. أظنك عملت «أبو على» وأطلت لسانك كالعادة على رؤسائك فشحنوك برجوع البريد على الإسكندرية».

ـ صبرك ياحسن ياغريب أقلع عن العادة الرذيلة التى تجعلك كلما رأيت وجهى تركبك العفاريت... إنما أرجعنى شوقى لاجتلاء طلعتك البهية ولحظك الفاتك!

ـ تسخر منى يابن جازية؟

ـ جازية هى أمى وأمك ياحسن... فكف عنى لسانك ولتعلم أننى مررت بالمحل قبل أن أتجه إلى البيت احتراما لك... فإذا لم يجد معك الاحترام فارمه وراء ظهرك ولتتعامل كالخواجات.. حقى.. وحقك...

فاجأت غضبته حسن الغريب فتسمر مكانه فاغراً فاه وشحب وجهه... بينما أدار له يوسف ظهره وغادر المكان... اقترب سيد المرسى ـ ذلك الغامض الصموت الذى يندر أن يظهر ما بداخله.. وكان يوسف كثيرا ما ينعته بوجه «البوكر»... ولم يعرف أبداً معنى

لهذه الصفة إلا أن البوكر هو إحدى ألعاب «الكوتشينة» ـ اقترب من حسن الشاحب المصدوم:
ـ الولد راجع مرهق وقرفان ياحسن فلا تأبه لكلامه...
لم يجب حسن... فقط تخلى عن تخشبه وتحرك فى بطء إلى بنك القماش يتعامل مع زبونة تقلب «البضاعة» من ساعة مضت! بينما يكمل سيد المرسى وهو يتجه لزبون آخر.
ـ يوسف يحبك ويحترمك ياغريب ولكنه فوجىء بك بدلا من أن ترحب به تأخذه على الحامى!... ويوسف يلوم نفسه وهو يمضى فى شارع العطارين تقوده ساقاه.. «حسن لم يخالف طبعه يابن الشفقى... ولم يقل غير ما يقوله كل مرة فلماذا انفجرت فى وجهه بهذا الشكل؟... وما ذنبه هو فيما يصطخب فى رأسك من أمواج الحيرة المتلاطمة تدور كالدوامة حول مثولك فى الغد أمام النيابة العامة؟»... وحين ارتطم بحقيقة ما يحز به من تطورات ليلة مارينا كان يخطو داخل محل «على الأحسن...».
هل انكشف الحجاب عن أعين المرحوم خليل الشفقى حين سماه «على الأحسن»؟ أم أنها النبوءة أم لعلها رمية من غير رام؟... قالت العمة روضة حين سألها فى طفولته عن سبب التسمية ـ أسماء مجانية... ألفها خليل فى قعدة» حشيش... وعلى هذا.. أحسن عن بسلامته؟
... اختلف الأمر تماما بعد سنوات طويلة.. حين تقدم على لخطبة وحيدتها «أمارة» ومع الزغاريد كانت تهتف «سماك الأحسن لأنك الأحسن ياحبيبى»!

... والآن ما الذى رماك يايوسف..
عينا على تضج بالسؤال ولكن لسانه لا يصرح به... فلم يكن يوسف قريباً منه فى يوم ما.. لا أحد فى بيت الشفقى ظل قريباً من على بعد انفصاله عن تجارة الأخوة الموروثة فقد أدانوه جميعا حين شق عصا الطاعة على حسن الغريب وطالب بحقه فى ميراث الأب.. وتشاجرت باطه مع عمتها روضه واتهمتها مع ابنتها «أمارة» بتحريض على واللعب فى دماغه!.. وظل الجميع فى البيت الكبير على بعد أقل من شعرة من الأخ الشارد... حتى بعد أن نجح فى تجارته الجديدة وأصبح حديث العطارين ومناط الحسرات الدفينة فى داير البحر.
[جاليرى عروس البحر ـ على الشفقى وشركاه]... لم تكن المرة الأولى التى يزور فيها يوسف متجر شقيقه.. ولكنها كانت المرة الأولى التى ينبهر فيها بما يراه... خلال العامين اللذين لم يهوب فيهما نحو المحل... تغير إلى شىء مهول.. «يخرب عقلك ياعلى... كل هذه التحف والقطع النادرة التى تنسب لأفخر الأصناف والأنواع... وتباع أقل قطعة منها بمئات الجنيهات.. وقد يصل سعر أغلاها إلى عشرات الألوف؟... على الجدار.. خلف مكتب على لافتة تقول: هذا من فضل ربى... ومن مبخرة ثمينة عامرة بالبخور الهندى والجاوى والعود.. يتصاعد أريج يجعل من حفيف الهواء المكيف لحنا يدعو للإخلاد إلى النوم».
ـ خطوة عزيزة يا أحلى يوسف فى بر اسكندرية...
هزته رنة الصدق فى عبارة الترحيب وكأنه يواجه على حين غرة

ذنبه القديم فى حق على... للآن لم يكن فى الصورة غير ظهره «بالبنسن» ذو اللون البترولى يلوح من فرجة الباب.. منحنيا على أدراج الدولاب الخاص بالأب الراحل... لم يلتفت ولم ير يوسف غير لون البنسن.. ومع ذلك حين صرخت الحاجة جازية صباح اليوم التالى للوفاة بأن المائة ألف جنيه التى كان المرحوم يودعها دولابه قد اختفت... سارع يوسف باتهام على الأحسن.. كان ذلك هو يقينه وقتها وبكل حدة اليقين أقسم على المصحف أمام رجال البيت ونسائه أنه رأى على الأحسن رؤية مباشرة صريحة وهو يغتصب الأدراج المغلقة... وضحك على هازئاً فى البداية ولكنه ما لبث أن صعق أمام نظرات حسن وسيد وباطه وأمه نفسها.. وراح يصرخ غاضبا... ثم يبكى مدافعا... وكان بكاؤه هو تتمة الإدانة! «طفش» على من البيت وظهر فى قرية العمة «روضه» التى لجأ إليها غاضبا يجتر مرارة القهر والظلم... حتى تقدمت راما بشهادة مناقضة لشهادة يوسف «صاحب الجلباب البترولى لم يكن على... كان «مسعود البحيرى» المستخدم فى وكالة القماش والذى كان مقرباً من الحاج خليل ويلازمه كظله... وفى مرضه الأخير كان ينام على الأرض فى وفاء الكلاب... رأيته وهم يقومون بغسل أبى فى الحمام يخرج من الغرفة متأبطا لفة كبيرة! كانت راما وقتها طفلة... وتشككوا جميعا فى روايتها.. ولكن سيد المرسى اختلى بمسعود ونظر إليه طويلا بعينيه الناعستين تحت جفنين نصف مطبقين... وهمس يعاتبه:

ــ من آمنك لا تخونه ولو كنت خائنا... فما بالك ومن آمنك فى دار الحق ينتظرك؟

وانهار البحيرى باكيا وجثا على ركبتيه يقبل قدمى المرسى.. وأعاد اللفافة التى تحوى المبلغ كاملا... وحين طرده حسن الغريب اتجه مباشرة إلى المالح ولفظ البحر جثته على شاطىء الأنفوشى بعد ثلاثة أيام...

كان المرحوم يلبسه نفس ثيابنا ويكسوه من نفس المقاطع.. حتى لون القماش كان يوحده... وهناك حكاية سرية تتردد فى بعض الأزقة والحوارى المتفرعة من داير البحر تقول أن «مسعود» ليس إلا ابن خليل فى الحرام من «زينات العرجاء» التى تركته فى حجرة وهربت بعد ولادته بأيام.. وتولته الحاجة جازية التى عهدت به إلى نظيرة بنت الجدة «سوريا» من زوجها الليبى...»

أصر حسن الغريب أن يذهبوا جميعا بربطة المعلم ليصالحوا على الأحسن ويعودوا به معززا رافع الهامة إلى البيت... وظل يوسف بعدها وطوال سنوات يهرب من ملاقاة على أو النظر فى عينيه أو حتى التواجد معه فى مكان واحد..! وكان على كلما لقيه يهش له ويناديه مازحا «ياظالمنى».. لم يتحدثا فى الأمر أبداً... وخرست الأسئلة فى العيون وذبلت الإجابات على الألسنة.. ويوسف يعجب لنفسه كيف تقوده قدماه لعلى بالذات وقد كان ينوى استشارة حسن؟ «اتراها ترضية يقدمها له معتذرا بعد ما يقرب من العشرين عاما؟»

ــ نورتنا يا أبا حجاج!

ــ عندك وقت لى ياعلى؟..

ــ وقتى كله تحت أمرك ولكن إذا كنت تريد أن تتكلم فى موضوع

راما فلا تتعب نفسك ياحضرة الصحفى.. راما لجأت إلىّ مستغيثة تستجير بى من عسف وتحكم حسن الغريب... ولن أخذ لها..

«تركت راما المنزل؟.. إذا فهى لم تثق لحظة واحدة فى وعدك لها بالتدخل وإثناء حسن عن إتمام الزيجة المكروهة!.. الله! زمان البيت وقد اشتعل فيه الحريق..»

ــ لم آتى بخصوص راما ولم أعرف أنها تركت البيت إلا منك هذه اللحظة..

ــ تريدنى فى أمر آخر؟..

قالها على بفرح حقيقى «فلتأمرتى يا أحلى... أعرف أن حسن بوّر التجارة ولم يعد معه ما يسد حاجات الجميع.. وأنا سداد... كم يلزمك؟

ــ لا تفسد اقترابى منك يا أحسن بعرض النقود والاستعراض على خلق الله!

انكمش على معتذرا وأصاخ السمع

«ماذا أفعل ياعلى... وأنت رجل السوق الناجح الذى يتناقل الجميع أخبار شطارته وحنكته؟ هل أختار البطولة بالانتصار للحقيقة والعدل.. أم اختار النجاح والقوة باعتزال الرأى وانكار الرؤية؟..»

يسار الخط السابق

واجهة محل الأخوة «الشفقى إخوان للمانيفاتورة» تسقط عليها أشعة الشمس الغاربة.. لكن «التندة» العريضة تحول دون مهاجمتها

لأتواب القماش... يقف سيد المرسى بين حسن الذى أدار ظهره... ويوسف الذى وقف على الرصيف أمام الباب

ــ ادخل يايوسف.. لا تتحدث وأنت واقف على الرصيف!

ــ أنا فى طريق لموعد عاجل! أردت فقط أن أصالح حسن!.. حقك علىّ يابو على.. لم يرد حسن. (رغم طيبة قلبه كان رذيلا فى خصامه).

ــ عملت ما علىّ ياسيد يامرسى! بلغ أبا على حين يعتدل لك بوجهه أن راما تركت البيت ولجأت لعلى الأحسن!

ولم ينتظر يوسف ليرى انفجار القنبلة التى ألقاها!... هو لا يريد الانغماس فى حرب الأسرة حين تشتعل بين حسن وعلى وتنفجر معها مخزونات الإحن القديمة الراسبة فى أعماق النساء الرابضات على الأرامل القديمة وكراسى المطبخ.. أكداس من رماد الغيرة واللوعة الكسيرة والأحلام المحبطة... وأصداء المحاولات المبتورة، يعرف يوسف أن الركود قد طال وأسدل أنسجة العنكبوت... وصدئت أسلحة النزال وبتن جميعا فى توق يومى مكنون للاشتعال والتوهج ولو فى مسارب الجدوى المفقودة... «بعد الجدة سوريا وتحالفها القديم مع سلفتها هنيات رغم الشقاق القديم بين عبدالبارى الشفقى وشقيقه حمدان لم يشهد الحرملك أى تحالفات أخرى.. كانت هنا هدنات متناثرة واجتماعات صباحية فى شتاءات مختلفة.. تبدين فيها جميعا كأنهن سمن على عسل.. كذلك الصباح المشمس الذى تلا آخر أيام نوة «الغطاس»... وتسلق فيه يوسف ابن السبعة عشر عاما السلم «النقالى ليطل على سطح

البيت المجاور يريد أن يستدعى باطه لأمر عاجل... وراهن وقد اجتمعن... مجموعة من نسوة بيوت الشفقى المتجاورة يعرضن أنفسهن للشمس حاسرات جلابيبهن حتى الوسط وقد انهمكن فى إزالة الشعر بعجائن «الحلاوة» وهن يسمرن بأحاديث تتخللها ضحكات تتواءم مع الأسرار (المعلنة)... رفعت أم شوقى رأسها وحدقت به متسائلة.. التفتن جميعا جزعات وتقاربن يردن الاستتار لكن أم شوقى ــ تلك المرأة البضة التى سكنت أحلام مراهقته الجامحة.. ما لبثت أن طمأنتهن هاتفة ــ لا تخفن... إنه يوسف!

.. كم كرهها بعدها!.. «وماذا كنت تتوقع؟ أن يقطعن أيديهن من خلاف ويتدلهن فى عشق الملك الكريم؟»...

أفاق على نظرة الدهشة الساخرة يحدجه بها الرجل الواقف فى الترام قرب مقعده... ضبط نفسه يضحك بلا صوت... وقد داعبته ذكرى ذلك الصباح الفاضح.. ونهض ليترك الترام قبل محطته الموعودة فى «جليم».. مثلما كان يفعل قديماً... حين كانا يتواعدان على نفس المحطة حتى يأمنا مفاجآت أهل بيت الجوينى.. وفور نزوله من عربة الترام تسمر مكانه وقد توهجت كل الموجودات حوله.. كانت رحاب تنتظره..

ــ لا أصدق الصدفة!

ــ ليست صدفة.. سمعت رفيق يرد على مكالمتك.. وحلمت بأنك ستهبط من الترام فى «محطتنا» القديمة..

تفتت أحجار السنوات الثقال فى لحظات... ينصهر الزمن ويتحول من الصلابة إلى السيولة إلى الغازية... يصبح نسيما.. يتبدد فى

ترددات أيثرية ويتجمع فى ذبذبات أخرى ليكون صوتا حاضرا فى «المكان»... أغنية تهزج بألحان قديمة لما تزل تتجدد... وتلاشى كل ما ينبو عن يقظة فجر هرم كادت تمحوه الحدثان!

تكاد عظام يدها تنهرس فى قبضته... وهو يهمس... عند صوفى؟..

ــ أمازالت هنا؟...

خط النسخ

لم تبرح! رغم سنوات عمرها التى تجاوزت الثمانين... تدير ذلك الركن الخاص تحت الباكية القديمة فى شارع «آنوس» محافظة قدر ما تستطيع على السمة الحميمة والطابع «الأجريكى» بنفس الشعارات والعلامات التى وضعها جدها «أندرياس».. وحافظ عليها الأب «تاناشى» إلى أن فر ذات صيف مع مجندة انجليزية فى الخدمة الطبية لجيش جلالة الملك خلال الحرب العالمية الثانية.. واختفى إلى الأبد..

تحفظ صوفى سجل الدقائق والساعات وأحداث خمسين عاماً أدارت فيها الـ «أفروديتى».. وتحفظ ذاكرتها أيضا الوجوه وقصص العشاق..

بنفس البسمة التى لقيتهما بها منذ أكثر من خمسة عشر عاما.. وطريقتها الخاصة فى الترحيب..

ــ يوسف.. رحاب.. فرحانة برؤيتكم!

وتدير لهما نفس الاسطوانة العتيقة «حبنى برقة.. حبنى بصدق»!

ويقول يوسف لرحاب إذ هما فى الركن المجاور للنافذة المعرشة بفروع اللبلاب...

ـ كأنى لم أفارقك كل هاتيك السنين!...
ـ كأنى لم أرك إلا الأمس... وأحببتك بالأمس!
ـ لكنى أعشقك اليوم... وأريدك الآن..
.. نكست رأسها... «أيستطيع الإنسان أن ينسخ ما جرى بما هو حادث؟..»
الأمل فى النسيان يبدو تعلقا بالمحال.. فمازالت النيران التي اشتعلت فى دمائه يوم زفت إلى «الآخر» تنهش كل وريد وتخنق كل شريان متى تذكرها... «كيف ينسى أنها أعطت نفسها لغيره؟»
ـ لم أعط نفسى... أعطيت فقط جسدا لا يزيد عن رداء يمكن أن يغتسل ويتطهر!
ـ حديث الهراء بعينه! فى هذا الجسد مسام انبجس منها عرق الاستمتاع فوشحها.. ومسارات لمستها أصابعه فدنستها..
ـ لقد كنت زوجته!
ضرب المائدة الخشبية بقبضة يده «لم تكونى إلا زوجتى أنا» بشرعة الوعد والعهد والقلب.. وبنفس الشرعة أنت خائنة!
ـ وأنت مجنون!..
ـ لا فائدة! لن ينسخ اليوم أمسا فما يحدث هو العكس.. الأمس هو الناسخ الذى يسيطر ويسمم كل مناهل النبع! لكن صوفى جاءت وجلست بينهما... أمسكت بأيديهما
ـ تذكرا الحب فقط... هو وحده السيد الناسخ!...
غنت لهما رقصت.. فتاة فى الثمانين... لم تستطع ثمانينها أن تنسيها من أحبت... «لا أحد يعرفه... ولم تتحدث عنه لإنسان...

ويردد بعض القريبين منها أنه معشوق صنعه خيالها...»
... سقطت دمعتان من عينى رحاب على كفيه...
ـ ألن تغفر لى أبدا؟...
ماذا يقول لها وقد انداح به جنون المحال إلى شواطىء سوداء مقفرة؟ أيقول لها إنه طلب المغفرة هو نفسه استمرارا فى مقارفة الذنب؟ «... كان جبينه يلسع حارا... وأصابعه ترتعد لاتقوى على الامساك بشىء... احتوتها هى بين كفيها... ومالت تلثمها لا تعبأ بالدموع المتساقطة... مال رأسه.. ولا مس جبينه جبينها... وصمتا.. وكفت دموعها... وجمعت أصابعه فى كفيها... وهمس يتمرد على صمت لا يريده...
ـ رحاب... أنا فى ورطة!
ـ الفتى الذى قتل؟...
ـ أمثل غدا أمام النيابة لأدلى بشهادتى!
ـ كرر عليها ما قاله منذ ساعات لعلى الأحسن:
ـ ماذا أفعل يارحاب... وأنت أقرب من يهمه أمرى.. وأبعد من أعرف عن الهوى والغرض؟
هل اختار البطولة بالانتصار للحقيقة والعدل.. أم أختار النجاح والقوة باعتزال الرأى وانكار الرؤية؟
... والشمس تهرب ملقية لهيبها بعيدا.. ورصيف «الكورنيش» المتسع عند «باسترودس» ذى الشراع الخرسانى المطل فى فجاجة جارحة على المتوسط.. كانت الخطوات تسترجع جولات مماثلة فى الأمسيات البعيدة..

ماذا يمكنها أن تقول له وقد سمعت الجدال الدائر بين أبيها وأخيها عن الجنون الذى يمكن أن يدمر يوسف الشفقى لو «قل عقله» وورط آل الرمادى فى قضية «معيد الجامعة».. الاسم الذى اختارته صفحة الحوادث لجريمة «مارينا»...

... هل يمكن أن يتفق رأى على الأحسن مع رأى رحاب إلى حد التطابق؟... أدهشه السؤال وإجابته التى استقرت فى صدره كالغصة الماثلة لا تتزحزح.

الحقيقة نسبية والعدل ظرفى... والبطولة هى الوجه الآخر للحماقة... والعصر هو مرتع النجاح والقوة..

وحين أطبق الغسق أوصل صاحبته إلى بيت جليم... كان رفيق فى الشرفة.. لوح له ليصعد فأشار له رفضا وأدبر منصرفا.. يتصيد سيارة تاكسى توصله إلى «لوران».. وبادره سائق عجوز مستهجنا:

ــ أنت شاب... أمشها ياأخى!.. وكان هذا مقدرا ليلحق به رفيق!

ــ لماذا لم تصعد يايوسف؟

ــ دعنى الليلة يارفيق فبى ما يكفينى ويفيض!

ــ فالح فقط فى مواعدة أختى المتزوجة؟ اسمع يابن الشفقى.. بيننا صداقة وعيش وملح وسنوات طويلة فلا تفسدها..

توقف يواجهه غير عابىء بازدحام الشارع...

ــ من الذى أفسد سنوات الآخر يابن الجوينى؟ أنت وأمك وأبوك.. ثلاثتكم غصبتم رحاب دونى واستلبتم منى حلم البكور... وإذا أردتها اليوم فلن يحول مخلوق بينى وبينها..

فاجأت لهجته المتحدية صاحبه فوجم يحملق فيه دهشا مأخوذا..

ــ ما الذى أغضبك فى قولة حق؟.. أترضى لأختك باطة أن..

ــ لا تعقد مقارنة غير جائزة وغير صحيحة.. باطة لم تغصب من رجل كانت تريده..

وأدار له ظهره وأمعن فى سيره لا يلتفت نحوه.. حتى حين سمعه يسبه ساخطا..

خطوط متقاطعة

.. لم ضايقه أن يشير رفيق إلى حكاية «باطه»؟.. هو يعلم جيدا أن باطه هى أمه أكثر من الحاجة جازية.. بل هى أم كل الأخوة المتحدرين من صلب خليل عبدالبارى الشفقى.. غادة داير البحر فى شبابها.. تلك التى سقت رجال الربع وجيرة الجيرة من مرافعتهم مرا وسهدا... هو لا يعى من الأمر غير ما يرسب فى ذاكرة الغلام الذى كان يغادر عتبات الطفولة لتفجؤه ارتباطات المراهقة.. وأصيل ذاك اليوم الخريفى حين تزينت «أبلة باطه» على سنجة عشرة.. وتغندرت للقاء خطيبها.. «سمير الطرفاوى» زينة شباب الداير ودابر الداير... الفتى ذو الوجه.. الـ..

تسمر مكانه... الفتى ذو الوجه الحنطى!!

نفس السحنة يايوسف ونفس العينين ونفس الابتسامة.. سمير الطرفاوى هو زين العابدين إمام!! وكلاهما استشهد عشقا فى عصر تباع صبواته فى سوق النخاسة!

.. ذاك الأصيل.. كان اللقاء الأخير.. بين عطيات وسمير..!

صافحت الشمس الغاربة على حرف المتوسط وجهه حين خرج من باب البيت.. ووجد جابر «القزعة» فى انتظاره شاهرا «السنجة» ولم

يبد أكثر من ابتسامة دمعة مبتورة حين اخترق النصل صدره لم يصرخ ولم يصدر عنه مجرد آهة تقيأ دما ثم انطرح صريعا وبجواره وقف «القزعة» يطعن نفسه ويضحك.. ثم يقعى بجوار جسد سمير... ومن دمه هو يرسم خطوطا على جبهة قتيله.. ومن دم سمير يرسم خطوطا على جبهته هو.. ويصرخ مخاطبا الجمع الذى تحلق حوله من أهل الداير:

ــ عرضت عليه أن اقتسم ثروتى معه... قلت له ياسمير خذ عمارة السيالة.. وأرض العامرية وسيارتى الجديدة ونصف مالى فى البنك.. حلال عليك... اتركها لى.. بنت الشفقى لن تكون لغيرى! ولكنه ركب رأسه ولم يصدقنى! لم يصدقنى ياعالم... لم يصدقنى ياهووه!

.. يذكر يوسف أن «باطه» لم تصرخ ولم يغم عليها ولم تذرف دمعة... فقط تخشبت كالموتى واصفر وجهها وغمغمت بنياط قلب مخلوع: ياضنا أمك ياحبيبى!

ويغشى الذاكرة ما يغشاها فلا يذكر بعد ذاك المغيب أن باطه عرفت رجلا أو طمعت فى زواج... يذكر فقط جملة وحيدة رددتها على مسامع العمة روضه..

ــ زوجى الأول والأخير تحمم بدمه قبل العرس فصرت حراما على سواه...

حرمت باطه نفسها... وحرمها أهل الداير.. وانقطعت السيرة!..

«... تعلم الآن يابن الشفقى ما الذى جذبك إلى الفتى الحنطى ليلة القمر المخسوف... وتعلم سر العينين النجلاوين والبسمة الآسرة... كأن قدرك أن تشهد النهايات..»

فى الشرفة العلوية لفيللا لوران أطل قمر مشوه يحبو نحو المحاق... ورائحة الياسمين تتماوج مع نسمات سبتمبرية أفلتت من شرد النهار الحار... والقنديل الأخضر يسقط غلالته على وجه هانى الكرداوى الذى احتضن صدره بذراعيه وعلت عبسة ما بين حاجبيه عينان مرهقتان احاطتهما هالات السهد المعذب.

ــ ما الذى أتى بك إذا وقد استشرت وأفتوك؟!

ــ أريد أن أعرف ما قلته فى شهادتك أمام النيابة!

ــ شهدت بما رأيت!

ــ الظلمة كانت سابغة... القمر مخسوف والبحر أسود.. والأضواء بعيدة.. فكيف رأيت؟

.. رقعه هانى بنظرة ساخرة...

ــ كما رأيت أنت ياحضرة الصحفى خادم الحقيقة!

.. نهض إلى السور.. وارتكز على مرفقيه كأنه لا يريد أن يرى وجه صاحبه..

ــ لا أستطيع يادكتور أن أجزم بما رأيت.. لا أستطيع أن أقسم على شهادة أذكر فيها أننى رأيت ابن الرمادى ورجاله وتأكدت من وجوههم وهم يطاردون زين العابدين ويطبقون عليه.. وأنه هو بعينه من سحلوه على الرمال وجروه إلى البحر وأحاطوه بزبانية آخرين يركبون اللنشات التى دارت حوله تصنع تلك الدوامات التى أغرقته بعد أن ضربوه على رأسه ليفقدوه وعيه!...

واستدار إليه وكأنه يعرض برهانه الساطع...

ــ فى ضميرى أعرف أنهم هم... ولكنى لا أستطيع الشهادة بأنى «رأيتهم»!.. أتدرك الفارق يادكتور؟.. راحة الضمير تشترط أن تتحد الرؤية مع المعرفة!

«.. عينا الرجل الرقيق تلمعان بوميض حاد كأنه انعكاس ضوء مبهر على حافة سكين تم شحذه فى الحال... ووجنتاه تنبضان فى رعشة هى تعبيره الوحيد عن الغضب.. وبصوت هامس يترامى إلى الأذن وكأنه يصدر من غور بئر سحيقة.. أصدر أمراً صارماً..

ــ لا تتحدث عن الضمير! الكلمة تنغمس فى الدنس على لسانك!

أصابته الكلمة فى صدره! أصابت العصا رأس زين العابدين إمام أصاب نصل السنجه صدر سمير الطرفاوى.. الدم أزكى من الكرامة المهانة.

كان إصبع هانى السبابة يكاد يلمس طرف أنفه...

ــ لقد أخبرتهم أنك كنت معى.. وأننا رأينا معا ابن الرمادى يقود القتلة.. وتستطيع أن تردد أمامهم سفسطتك وهراءاتك المتخاذلة.. لتركع أمام عبدالرحمن الرمادى وتلعق الغبار من فوق حذائه.. افعل ما تريد وقل ماشئت وفقا لضميرك «البغى» المعروض للبيع... فقط... غب عن ناظرى.. ولا تدعنى أراك فى هذا البيت مرة أخرى.

■ الفصل الثامن



ضحى يوم فى منتصف الخريف

لم ينحسر الظل كثيرا عن جدار المبنى المقابل الماثل عن بعد من خلال النافذة العريضة المفتوحة خلف مكتب المحقق (رئيس نيابة أو مجرد وكيل للنائب العام ـ لم ينتبه جيدا خبروه قبل دخوله الحجرة ـ رآه شابا نحيلاً فى منتصف العقد الثالث بملامح تشى بأصل صعيدى لا شك فيه).. كان يجيب على الاسئلة المعتادة فى مقدمة المحضر وهو يتشاغل عن توتره بمراقبة حركة الشمس فى الضحى من خلال حركة المساحة المظللة على واجهات تقابل الشرق..

ـ صحفى؟.. فى أى جريدة؟..

بدت فى عينى المحقق لمعة اهتمام غير مهنية حين ذكر له اسم الصحيفة.. وأشار إلى سكرتير النيابة بأن يتوقف لحظات عن التدوين الرسمى.

ـ صحيفتكم هى الوحيدة التى لم تنشر حتى سطر واحد عن حادثة ماريناً»؟

«.. ناقش الأمر خلال رحلته الأخيرة إلى القاهرة مع من لقيهم من زملائه وعلم من تلميحات متناثرة ان الرجل «الكبير» يراعى خاطر الرمادى.. بينما وبخه مدير التحرير حين سأله (وما اهمية حادث غرق عادى يتكرر

كل يوم طوال فترة الصيف؟.. دماغنا يايوسف.. اذا كان لديك تفاصيل تستثير حاستك الصحفية اكتبها وهاتها)..

ـ هذا ما أنوى ان أفعله!..

رمقه رجل النيابة بنظرة استفهام.. (نعم؟..)

ـ اجهز حاليا تحقيقا صحفيا عن «ضحية عيد الميلاد».. هكذا اسمى موضوعى!..

ـ حدثنى عنه قليلا!..

ـ لم اكتبه بعد!..

ـ لا أقصد الموضوع.. حدثنى عن «الضحية»!..

فى المحضر الرسمى قال انه رآه لأول مرة فى فيلا الرمادى مساء يوم الاحتفال.. وحكى وقائع الليلة حتى المطاردة التى بدأت من سلم الفيلا.. إلى البهو فساحة الانتظار الخلفية..

ـ وبعدها؟..

ـ دعانى الدكتور هانى لاصاحبه فى بحثه عن زين العابدين.. وحين وصلنا لشاطىء البحر خارج القرية.. رأينا مجموعة تطارد شخصا عرفت بداخلى انه نفس الفتى.. ولكنى لم أر ملامح أحد.. كان الخسوف قد حجب سنا القمر واصبح الظلام سابغا..

ـ وفى ساحة الانتظار .. هل غيرت احدا من المطاردين؟

ـ فى الساحة كانت هناك مصابيح تضىء المكان.. وكان الرجال الذين يطاردون الفتى يرتدون الزى الخاص بحراس الأمن فى الفيلا!..

ـ يقول الدكتور هانى انكما شاهدتما الجريمة بوضوح وتأكدتما من شخصية القتيل ومن اشخاص قاتليه..

ـ كما ذكرت.. بداخلى اعرف انهم هم! اما رؤية العين فلا اقسم عليها..

ـ وهل هذا ما تنوى كتابته فى تحقيقك الصحفى؟.. تعرف بداخلك فقط؟..

.. رنة السخرية فى صوت المحقق اخنقته واثارت فى نفسه مشاعر عدائية حاول ان يكتبها ولكنه لم يستطع فقرر للمحقق انه أدلى بكل ما عنده ولايوجد ما يضيفه وبدأ باردا غير متعاون فى اسئلة اخرى حاول الرجل بها ان يتحاذق.. مشيرا إلى علاقة جاسر الرمادى بهاله.. ودخول زين على الخط..

ـ ستسمى تحقيقك الصحفى ضحية عيد الميلاد. أليس كذلك؟.. والضحية طبعا هو زين؟.. والمستفيد من موته هو جاسر .. العاشق المهجور.. ورجال أبوه وجده هم الاداة التى نفذت حكم الاعدام. إنها سلسلة.. ألا ترى ذلك؟.. أليس هذا ما ستضمنه موضوعك الصحفى؟ اتعرف يا استاذ يوسف ان مثل هذه الجريمة تصنف فى القانون الفرنسى بأنها «جريمة عاطفية» ويكون الحكم فيها على المدان حكما مخففا للغاية؟

مالى أنا وقانونك الفرنسى؟ وما الذى تريد ان تستدرجنى إليه؟.. اتظننى اخشى الرمادى انت ايضا؟.. نعم.. هانى يظن هذا.. وعمرو هناك فى القاهرة..! هل يبدو على وجهى اننى من هذا النمط المساوم؟.. حسنا.. سترون جميعا..

ـ تلونا عليه اقواله ووقع»..

لم تبرق عينا هذا النحيف خلف نظارته ببريق انتصار مخطوف؟.. فليرقص اذا شاء.. انا لم اخالف ضميرى بكلمة ! شهدت بما رأيت وقلت ما اعرفه.. لم اخلط هذا بذاك.. الرؤية شىء والمعرفة شىء آخر..

كانت رحاب تنتظره جالسة خلف مقود سيارة انيقة لم يرها من قبل.
ـ سيارتى.. شحنتها قبل عودتى.. ووصلت منذ أيام.. وأخرجها رفيق بالأمس فقط.
ـ هل اشتراها لك ذلك الذى بعثنى من اجله؟..
بغضب توهج فى عينيها اصابته .. لم يدفع من ثمنها فلسا.. ابى ارسل ثمنها كهدية فى عيد ميلادى الماضى بعد ان علم انه لايريد ان يشترى لى حتى الثياب بعد ان تأكد من اصرارى على تركه!!.. هل ستركب الآن؟
ـ هل تذهبين معى إلى غبريال؟..
.. عينا الفتى الحنطى لاتكفان عن الوميض! كأن من خلال الصورة المحاطه بشريط الحداد ينتصر على موته ويفرض وجوده الحى على كل من ينظر إليه.. وهكذا تسمرت رحاب ولم السؤال الذى وجهه «هانى» ليوسف: مالذى اتى بك إلى هنا؟.. هل أرسلك الرمادى لتساوم اسرة القتيل؟ كم يعرض من اجل الدية/
.. ويستدير إلى الرجل المهدم: كم تريد ثمنا لدم زين ياعم امام؟..
جذبه يوسف بخشونة إلى السطح المجاور.. وامسك به من ياقة سترته يهزه وكأنه يريد ان يطرحه ارضا «كف عن وساوسك الغبى».. لا احد يستطيع ان يشترينى أو يخترق ضميرى ولقد ادليت اليوم بأقوالى أمام النيابة.. اذهب وراجعها ان سمحوا لك.. ولكن لاتواصل عدوانك تجاهى! انا لا اصدق ما تبديه من حزن ولا أصدق تشنجك المثالى من اجل العدل .. انت مدع ياحضرة الدكتور ! بل انت ارهابى لا أكثر!.
لم يحاول هانى أن يقاوم او يخلص نفسه من غضبة يوسف.. لكن عيناه

ظلتا ثابتين على نظرة اختراق صارمه تكرر مع السؤال: ما الذى اتى بك إلى هنا؟..
افلته وهو يستدير ليواجه شمس الزوال.. «اردت ان اراك.. ويقينى ان تكون هنا..»

خط الزوال

انحدرت أشعة الشمس عند حافة شباك «الصالة» لتسقط مخروطا من ضوئها على الجدار الذى يحمل الصورة.. وكانت «زينب» تبكى.. والأم تقص حكايا زين على رحاب بايقاع «العديد».. وهى تخبط على صدرها بدقات رتيبه مصاحبه.. والأب يضع رأسه بين كفيه.. وفى الخارج على السطح يهمس هانى مؤكدا: سأتزوجها!.. فقط بعد شهور الحداد وتقديم القتلة إلى القصاص!
رحاب تعصر مشاعرها قبضة بأصابع حجرية تلمس قلبها فتوجعه.. تحس فجأة بالرغبة فى الفرار ومبارحة بيت الاحزان هذا.. لكن عينى الفتى فى الصورة تسمرانها فى المكان.. تختق فى حلقها كلمات الاستغاثة.. يايوسف.. خذنى بعيدا عن هنا.. عمرى ما حضرت معزى ولا أحاط بى السواد.. سمعت مرة صراخا فى عمارة مجاورة.. واصوات نساء يولولن .. وصوت شيخ يقرأ القرآن فى صوان قريب من عمارتها.. ولكنى لم احمل فأخذتنى امى إلى شقة المعمورة.. ما الذى اغراك باحضارى إلى هنا؟..»
.. فى طريق العودة اصر هانى ان يقلهما فى سيارته.. وبمجرد خروجهم من «غبريال» عاد إلى اهاب «الرجل الرقيق».. وكانت رحاب الجالسة فى المعقد الخلفى تشرد ناظرة إلى وجهه فى مرآة السائق..

يقول يوسف انه استاذ مساعد فى كلية الآداب.. ابن ناس ووحيد امه.. لماذا يتوافق هذا مع ملامحه.. بشرته البيضاء وشعر رأسه الناعم الفاتح المائل للشقرة ووجهه الخالى تماما من اى آثار لحلاقة الذقن أو الشارب.. (اهو الذى يسمى فى لغة الرجال «اجرودى»؟.. ربما .. ولكن خطوط جسمه المنحنية ورشاقة حركته اثناء قيادة السيارة.. تغرى بالـ ..)

ساعتها فقط انتبهت إلى أنها نسيت سيارتها الجديدة فى الشارع المؤدى للحارة عند بيت زين العابدين! صرخت فأفزعت كلا الرجلين!.. اسخطها ان تنسى.. اليوم كله يغضبها.. وعبارات التهدئة التى يسرف يوسف فى اغراقها بها تثير فيها الجنون.. عادا بها إلى سيارتها الجديدة.. سارت خلف هانى حتى اتضحت لها المعالم فانطلقت منفصلة عنهما بسرعة اثارت دهشة..

«ما الذى اغضب صاحبتك لهذه الدرجة حتى رفضت ان تقلك معها ثم ابتعدت عنا وكأنها تفر من وباء؟..

ـ زيارة اسرة زين أربكتها واصابتها بالاكتئاب.. ما كان يجدر بى ان اصحبها معى!..

.. وقرب فيلا «لوران».. سأله بعد صمت طويل.. «خطيبتك؟»..

ـ انها اخت صديق.. وهى متزوجة ولها طفل!..

.. فى شقة «جليم» المطلة على البحر وقف رفيق ينتظرها.. وحين لمح سيارتها تقترب هرع ليستقبلها فى مدخل العمارة.. «اسمعى!.. الافندى زوج حضرتك وصل فجأة.. وهو يتظرك مع ابيك وامك إلا تثيرى المشاكل ودعى اليوم يمر بسلام!..»

تكملة اليوم!.. اى مشاكل تلك التى يتحدث عنها رفيق؟ هى لاتريد ان

ترى اصلا وجه «الافندى» ولاتنوى ان تدخل معه فى شجار أو مجرد حوار وكم تتمنى لو تم كل شىء بهدوء وبدون صراعات أو وجع دماغ..)

لم تمد يدها لتصافحه ـ فمنذ ما حدث تلك الليلة.. وجسدها يقشعر لمجرد مرور ظله بجوارها.. ولم تجلس رغم نظرة الاب الغاضبة ولهجته الآمرة..

ـ بالراحة وبدون وجع قلب.. سأبريك وارد لك هداياك.

ـ لم احضر لا طلق.. لقد منحتك الاجازة التى تريح اعصابك.. وستعودين معى..

هل كانت تضحك وتصرخ فى آن واحد امامهم أم تراها فعلت فى داخلها؟.. كل ما تعلمه ان الطنين اصم أذنيها.. احست فقط بجملة واحدة تتردد على لسانها..

ـ تريد ان تبيعنى لمن هذه المرة ايها القواد؟..

.. مياه الخليج ساكنه.. راكدة.. والرائحة عطنة لكن التكييف المركزى بالمستشفى الفخم يحول المنظر من النافذة العريضة إلى مجرد لوحة باهتة الألوان تتوهج بلون ابيض جيرى. يلسع النظر.. وطبيب انجليزى يقيس لها ضغط الدم.. ويتحدث إلى صديقتها الفلسطينية.. وهى تحاول الخروج من النفق برغبة تحرقها فى بقاء الألم مدفونا حيث كان.. ومن حالة التأرجح بين الغفوة والانتباه استطاعت ان تلتقط من كلمات الطبيب انها تتعافى لتوها من حالة انهيار عصبى حرجة.. وانه يوصى الجميع بأن لايذكروها بما حدث.

ما حدث؟.. ماذا حدث؟.. ابيضت الستائر والمرئيات ثم اخترقت وهج الابيضاض كرة حمراء ثم اسودت ولم يعد هناك شىء.. وعلى حافة

العودة كانت هناك فتيات يرتدين الملابس المحلية ويرقصن رقصتهن المميزة التى يطوحن فيها الشعر الطويل يمنة ويسرة على ايقاع لم تسمعه لان اذنيها انشغلتا بأغنية لرجل من اهل البلد يغنى متأوها عن القلب الملتاع الذى لا يحتمل غيبة الحبيب ليلة.. وتقاطعها ترنيمات فولكلورية من تراث المنطقة عن مركب الهند.. «يامركب الهند يام دجله ـ ياليتنى كنت ربانا.. لاكتب على دفتك سطرين.. اسم حبيبى وعنوانا..» ثم تزكم انفها تلك الروائح الحريفة فى حى يقطنه الهنود.. ورائحة لحم مختلطة برائحة مخلفات الاغنام ولبن الماعز فى وجبة «المنسف»! نفس الرائحة التى تصاعدت من وجبة اللحم الجاهزة التى ابتاعها الزوج لتكون طعام السهرة التى دعا اليها كفيله المليونير الذى كان يفترسها بعينيه منذ لحظة وصولها إلى مدينته الموبوءة.. الوباء يطال ارواح البشر ويدفعها بنوع من الطاعون لم يرد ذكره إلا فى العهد القديم.. انفاس الرجل والابخرة المتصاعدة من فمه تتابعها اينما ذهبت.. وحين شكته إلى زوجها نهرها وأمرها بأن تكون لطيفة مع الناس الذين يملكون مقادير الأمور.. ولن يعضها احد أو يأكلها! «.. هذه الليلة يا خيرى يهمس فى اذنى طوال السهرة.. انه يراودنى عن نفسى.. لماذا تبتسم هكذا؟..

ـ من تظنين نفسك؟.. قال لها وهو يتحرك خارجا بحجة صندوق الويسكى فى السيارة.. وأخبرها الضيف بان رجلها لن يعود قبل ساعة.. لقد تقاضى ثمنك بالفعل ياصاحبة العفة!.. ثم جرت تلك المطاردة التعسة التى اكتشفت خلالها ان زوجها قد اغلق الباب بالمفتاح من الخارج.. وحين خرجت إلى الشرفة وصرخت تستنجد.. كانت شرفة مغلقة بالزجاج المدخن العازل للاصوات.. ثم ضربت الضيف «بالفاز المورانو»

فى وجهه.. ليصرخ معولا.. وتهرع هى إلى الحمام وتغلق خلفها.. وتسقط مغشيا عليها لتعود إلى وعيها متسربلة بالوهج الابيض فى المستشفى.. والمستشفى هذه المرة كان يطل على المتوسط.. وبجانبها يجلس رفيق وامه.. يمسكان بيديها ويحاولان ان يخبراها بأن النذل قد خرج مطرودا.. (هل سمعت؟.. ربما فى فسحة خاطفة حين اخترقت زرقة البحر وهج الزوال!.

«اين يوسف؟.. يوسف كان هنا.. كلا لم يكن.. يوسف وحده يستطيع ان يخرجنى من القاع»!

خط المساء الممطر

شرفة الياسمين والقنديل الاخضر تشهد حلولا مبكرا لمساء غير عادى.. وجدالا ساخنا بين هانى وامه فى حضور يوسف الذى احس بحرج شديد واراد ان ينسحب..

ـ بل ابق يايوسف.. هانى يتحدث عنك دائما بما يؤكد ان لك تأثيرا عليه.. ليتك تنصحه .. ينصحنى بأى شىء يا امى؟.. زواجى أمر يخصنى وحدى..

الام تكاد تجن لاصرار هانى على الزواج بأخت زين العابدين وهجر «نانسى».. تلك التى خطبت له منذ عامين كاملين واتفقا منذ شهرين على اتمام الزواج!.. والبنت «لقطة».. تحفه حقيقية.. تحمل بذرة جمال فرنسى من امها.. ووجاهة المال والمركز الاجتماعى من ابيها..! كيف يمكن لهذا «الولد» ان يكون بهذا القدر من الغباء؟..

سرت دفقة ريح سريعه بلا مقدمات.. وعمقت ظلال المساء الرمادية حين اطلت تلك السحب التى جثمت فجأة وقد ناءت بحملها.. (اى مساء

غريب! مطر قبل أواخر سبتمبر..) يوسف يفسر الأمر: هى نوة غسيل البلح.. تأتى كاعلان مبكر عن حلول الخريف!.. تركت السيدة الشرفة مسرعة اذ كانت تمقت المطر.. وبقيا هما يستنشقان رائحة التقاء المياه بمخزون الحر فى الجدران والارضية.

.. فى المناطق المدارية تهطل الأمطار الغزيرة فى مناخ حار.. اما عندنا فلا بد ان يقترن المطر بالطقس البارد.. جسمى مبلل.. ولا أعرف هل هو عرق ام مطر..!»

ونزع هانى قميصه.. ولم تكن هناك ثياب اخرى تحته.. «هيا.. انزع عنك ثيابك مثلى.. ودعنا نتحد مع الطبيعة الام!.. وضحك يوسف:

ـ الطبيعة الام تفرض ان نكون عرايا كما ولدنا!

ـ ولم لا؟ فلنتعر كأننا نولد الآن فقط..

تردد يوسف ولكن هانى الذى رافقه اللعبة راح ينزع عنه قميصه..

«.. عيب عليك ياشتا والشمس طالعه.. واحدة منْ أهازيج الاحتفاء بالامطار.. كم كانت عذبه دافئه تلك الخيوط المنسابة من مسارب الشعر فى الرأس إلى الجبهة فالانف فالفم.. وعبر سلسلة الظهر إلى مفترق الإليتين.. وحفل الاستحمام الجماعى على سطح البيت فى داير البحر.. كانت امطارا صيفية ايضا.. ويومها قالت الام جازية ان مطر الصيف لابد وان يعقبه موت زعيم أو رئيس.. وبعدها بشهر واحد مات جمال عبد الناصر..

ـ آبا.. مالذى يبكيك؟..

كان خليل الشفقى يبكى كالأطفال.. بين رجال الداير الذين اصطفوا امام محلاتهم أو جلسوا على الارصفة.. يخبطون رءوسهم بأكفهم

ويصرخون بكلمات احتجاج ملتاع.. والنساء يسرن زرافات وقد ارتدين السواد واعتصبن بغلالات يلوحن بها وهن يطلقن «الصويت»..

ـ شردت مع الامطار مثلى؟

عاد يوسف من رحلته القديمة ليتأمل هانى مبهوتا.. اى لوثة اصابته حتي يقف عاريا تماما فى الشرفة وقد ضم زراعية متقاطعين حول صدره كتمثال فرعونى.. وراح يلعق قطرات المطر المنسابة على وجهه باستمتاع.. ولم يصدق يوسف ان ما يسمعه هو صرخه حقيقية حتى التفت ورآها.. تحملق فى هانى ذاهلة ثم تدور على عقبيها وتجرى..

أحمر وجه هانى اخيرا وهو يغمغم: هى نانسى! لا أعرف ما الذى اتى بها فى وقت الامطار الغريبة!..

تهدىء أم هانى من روع الفتاة «هكذا هو ياعزيزتى.. يعشق المطر! وعلى كل حال لم يكن يتوقع حضورك..» .. ودخل الرجل الرقيق وقد ارتدى ثيابه.

.. كألوان قوس قزح الذى يحزم السماء عقب انتهاء الامطار.. كان هذا الرجل.. اى رقة فيما فعله هذا المساء؟ التوحد مع الطبيعة بلون المطر الرمادى.. والخط الاحمر يتمدد خجلا فى عينيه.. وزرقة الحزن السابغ حوله فى المقلتين كشعيرات انبتها الغضب وغسلها الدمع.. يبدو شرسا فى لحظات انفصاله.. ورقيقا فى اقترابه..

يأتى بفتاته نانسى ليقدمها ليوسف الجالس وحده فى الصالون يعانى من بلله المزرى..

ـ يوسف.. رفيق الليلة اياها التى حدثتك عنها.. صحفى نابه ينتظره غد واعد..

.. الفتاة شقراء.. باهرة.. كشف بشرتها الوردية حتى لتبدو غير قابله للمس.. وصدرها المفتوح للمنتصف يشي بكاعبين ثريين.. يعلوه عنق روماني ورأس فرعوني تتوسطه عينان.. بنفسجيتين .. «نعم احسدك عليها! وتريد ان تتركها لزينب اخت زين؟.. آه.. لعلي مدنف بحب رحاب.. لكني اتمنى ان «امتلك» ناسني هذه.. أيها الكافر.. من يجحد النعمة يستحق لعنة الاولين والآخرين! ألا تحس بمتعة وكبرياء الامتلاك؟

.. في طريقه للخروج صحبته ام هاني.. «بالله عليك ياولدي.. اهذه البنت تترك؟ لم يجبها.. لان السؤال يحمل اجابته.. ولم تكن هي تتوقع منه ان يجيب.. همست توصيه: ـ لا تتركه يايوسف.. القلق عليه يفترسني.. ويعاودني كابوس أراه فيه يغرق وسط البحر ويستغيث ولايسمعه احد..

أما في الشرفة حيث غسلت الامطار كل ما علق بفروع الياسمين وزجاج القنديل.. فقد جلست «نانسي» ضامه كفيها بين ركبتيها.. تنظر لهاني عابسة منصته وهو يبلغها بقراره التعس.. «انت ملكة حقيقية.. تستحقين عرشا يطوف حوله ويسجد امامه افضل رجال البلد.. وأنا صعلوك في داخل.. حقيقتي أسوا كثيرا من مظهري.. لست ذلك النبيل الذي يظنه الآخرون.. فقد وقعت في غرام من لاتدانيك ولا تستحق ان تكون وصيفتك.. أنا لست جديرا بمثلك فانفضي يديك مني..»

.. ضغطت نانسي بقوة على كرزتي شفتيها حين ابيضتا وشحب تورد وجنتيها.. وانعقد ما بين حاجبيها ـ ربما منعا لانفجار وشيك ـ ثم نهضت وخلعت خاتم الخطبة من اصبعها وفي تؤدة وضعته امامه على افريز الشرفة.. وادارت له ظهرها.. ربما للأبد!

خط الليل وآخره

في حجرة الجلوس العتيقة كانوا هناك في انتظاره.. حسن الغريب الذي انتفخ ذلك الوريد فوق حاجبه الايسر واكتسى وجهه بصرامه حزينة واحمرت عيناه دلاله ارتفاع الضغط (حذره الدكتور شعيب مرة بأنه سيموت صريع سكته دماغية اذا لم يراع ضبط ضغطه) .. وسيد المرسى منهمك في لف سيجارة «ملفوفة».. وجازية تبكي في صمت.. وباطه تلظي انفعالا وتتولى عن الجميع ابلاغه بالقرار:

ـ يوسف ياحبيبي انت وحدك من يمكنه حل الاشكال.. اذهب إلى بيت علي الاحسن وعد برمانه!.. حسن شراني واذا اصطدم بعلي ربما قتله وتكون مصيبة.. وسيد «ني» لايستطيع مغالبة الاحسن.. وأنا ساضرب «امارة» بالمداس! وتكون فضيحة.. رمقهم بنظره متعبه مثقلة وقال: «ابلغني علي ظهرا انه لن يسلم راما إلا برغبتها .. فلتذهب امي.. سيخجلا.. ولن يرجعاها خائبة»..

اجهشت جازية بالبكاء..

ـ تريد ان اذهب لاشحذ بنتي من عمتك روضه؟.. ترضاها لامك يايوسف؟

ـ فليكن.. سأذهب.. ولكن ماذا أفعل لو رفضت راما ان تعود معي..

تكلم سيد المرسى: ستعود اذا ابلغتها اننا صرفنا النظر عن العريس المرفوض.. ويهب حسن واقفا كالاعصار:

ـ ورحمة أبي في نومته لازوجنها ممن اريد.. اذهب يا أحلى وبلغ انذاري الأخير لعلي الأحسن.. عليه ان يحمل البنت راما حملا ويعيدها إلى هذا البيت.. ماذا وإلا فليعد نفسه عدوى ليوم الدين.. وسأضعه في دماغي ولن

يهدأ لى بال حتى اقطع فرطه من الدنيا».. وتقول جازية نادبة الدهر الذى جعل فلذات اكبادها يتبادلون الحقد والكراهية.. ويعترض يوسف: «لا داعى لاعطاء الامر حجما لا يستحقه.. راما فى بيت شقيقها وله فيها مثل مالك ياحسن! فلنتركها هناك حتى تمل.. انتم تعرفون البنت .. لا تستطيع ان تعاشر عمتها ولابنت عمتها.. وعاجلا أو آجلا ستشتعل النار.. وستعود برجليها.. أما الزواج فلا توجد هناك الآن بنت ترغم على الزواج..»

يجأر حسن غاضبا: قلت لكم ان على الاحسن قد وضعه فى جيبه! هذا جورنا لجى «حلنجى» يلعب على الجميع ويصف مع الرايجه.. ولا أمل فيه.. سأذهب انا وآتى ببنت الكلب ولو سلسلتها بجنزير!

خرج كريح عاصفة ولم يسمح لاحد منهم بمراجعته رغم صراخ جازية وباطه التى اهابت بسيد ويوسف ان يلحقا به حتى لا تقع كارثة فى بيت على..

طمأنها سيد مؤكدا ان العمة روضة موجودة.. وحسن يهابها ويعمل لها ألف حساب.. وأمن يوسف على رأية بأن حسن يحمل قلب طفل بين جنبيه.. «وسيد هلزه» على الاحسن ويلفه حول اصبعه الخنصر.. وتقول باطه: «اكرهك ياولد يايوسف حين تتحدث عن شقيقك الأكبر هازئا..»

.. لكن باطه تعرف اكثر من غيرها إلى اى مدى يحب يوسف أخاه.

الفصل التاسع



السقوط فى فخ الظهيرة:

حين يغلق يوسف على نفسه باب حجزة البرج ينفصل تماما عن عالم البيت فإذا نام فكأنه «غطس» فى بئـر لا قرار له.. ويغيب عنه تماما كل ما يحـدث فى عمق المـنزل حيث تقع حـجرات باقى أفـراد الأسرة.. لكن الليلة حارة.. ومسامه ينبـجس منها العرق كالميازيب..» الرطوبة هى المشكلـة ! من الجـاهل الذى ادعى ان رطوبة الاسكنـدرية تنتـهى بانتهـاء اغسطس؟.. ها هو سبتـمبر قد انتـصف.. وكل شىء ساخن مـبلل والانفـاس ترزح تحت ابخــرة الماء المشــبع بالملح واليــود.. سبتمبر؟.. لماذا نستخـدم الاسماء اللاتينية للشهور؟.. ولماذا لا نفضل الاسمـاء الأخرى التى يستـخدمهـا أهل الشام؟.. يامـال الشام ياحلو يامال.. طال المطال..! أيلول أحلى من سـبتمبـر وتشرين اكثـر جمالا من اكتـوبر.. إلى اى لغة تنتمى تلك الاسـماء.. قال عمـرو ذات مرة إنها اللغـة السريانية!.. فـإلى اى قوم تنتسب؟.. لاتوجـد فى التاريخ حـضـارة سـريانيـة!.. فى تلك المنطقـة كـان هناك فـقط سـومـريون وآشوريون وكلدانيون وبابليون وفينيقيون... ولـم يكن هناك سريانيون .. اذاً فلغة من تكون؟.. لعلها لغة سرية؟.. سرية أم سريانية؟.. لعب

بالالفاظ.. أو لعب بالـ... يبدو ان هناك صلة ما بين الحروف.. والخلط لايجوز بين الاسماء والصفات .. واذا كانت سريانية تشبه سوريا أو هى نفسها بنطق مخالف لكنها لا تعنى السرية!.. وجدته أم خليل اسمها «سوريا».. سأله مرة فى طفولته: ما معنى سوريا؟.. فى اسرتهم وأسر أخرى فى الجوار تتسمى النساء كثيرا باسماء البلاد.. فهناك فرنسا وتركيا.. وأعجب من تسمت كذلك الحاجة «حجازية». هنا بنت حجازية.. شعرها ضانى.. لفيته على حصانى.. وحصانى فى الخزانة.. والخزانة عايزة سلم.. والسلم عند النجار.. والنجار عايز مسمار.. والمسمار عند الحداد.. والحداد عايز فلوس.. والفلوس عند الصراف.. والصراف عايز بيضة.. والبيضة تحت الفرخة.. والفرخة عايزة قمحة.. والقمحة عند التاجر..

اتصلت السلسلة حتى البقرة التى ترفض ادرار اللبن لأنها تريد الحشيش.. والحشيش فى الجنة.. والجنة عايزة حنة.. والحنة فى ايدين البنات.

هل الحشيش هو حشيش المرعى؟ ذلك النبات الأخضر البرى الذى يكسو المروج.. أم هو «حشيشة الكيف».. كله نبات ياسى يوسف.. كلا البقرة لاتأكل «القنب الهندى».. الذى كان يدسه «حسن الصباح» ـ لمريديه فى قلعة «الموت» فيسطلهم ويوعز اليهم وهم غارقين فى اوهام «السطل» انهم قد دخلوا الجنة..» والحشيش فى الجنة!.. أما البقر فاذا تناولوه فقد اصابهم الجنون.. جنون البقر!.. النوم يداعب جنونك وتخاريفك تنداح بلا نهاية «علىّ النعمة انت المسطول الأكبر بلا حشيش.. النوم قادم على فراش من المخمل.. والمخمل هو القطيفة»..

ـ ارايت يا أحلى؟.. أخوك حسن اهدانى بمقطع قطيفة «زبدة» في عيد الأم.. حاجة جازية.. لم تسمينها قطيفة زبدة؟.. ألها نعومة الزبدة؟.. الله على رائحة الزبدة التى كانت تفوح من ثياب عمتى روضه حين تحتضننا مرحبة أيام القرية.. وياسلام على رائحة تسييح الزبدة فى موسم البرسيم من كل عام.. ولأ «المورتة»؟!! موسم تخزين السمن البلدى.. وموسم تصنيع الصلصة.. وموسم تشوين القمح وغسله وطحنه.. ينهمك البيت كله فى انجاز المهمة وتخلو كل الغرف لألعاب الصبيان والبنات.

كن يحببنك يايوسف.. كل بنات داير البحر.. وكن يختلسن الفرص لتقبيلك.. (ياولد يامحطم قلوب الحسان.. ماذا دهاك؟.. «خنشرت» واصابتك الدمامة مع تباشير النضوج.. لكن نانسى هذه حكاية.. والأحمق هانى يريد زينب! كلها واشبع بها.. ودع لى نانسى التى لفحنى «صهدها» لحظة أن لامست اصابعها.. اصابعها فقط.. فما بالك لو..؟ لو ماذا يامسطول؟.. امرأتك هى رحاب .. هى انثاك الموعودة.. رحاب.. حلم لياليك الذى لايغادر.. لايبرح..

فى التليفون توصيه كل ليلة..

ـ خذنى فى حضنك واغمض عينيك..

وتهزج أم كلثوم.. «فادن منى.. وخذ اليك حنانى.. ثم اغمض عينيك حتى ترانى..».. متى دخل الفجر.. ومتى رحل.. ومتى تسللت الشمس ثم ارتفعت ومتى حلت الظهيرة؟.. تغيرت الدنيا فى ساعات نوم نعتصب متأرجح.. انتهت حين سمع الدقات على الباب.. خفيفة.. متكررة.. ثم صوت الأكرة و«تزييق» المفصلات

الصدئة.. لم ينتظر ليسمع صوتها فقد كان يعرف انها هى.. ولم ينتظر عودة حسن الغريب ليلة أمس .. ليعرف نتيجة زيارته لبيت شقيقه على الاحسن.. كان واثقا..» على أذكى.. ولكنه فى اعماقه يحترم شقيقه الاكبر إلى حد الخوف.. ولن يستطيع ان يصده رغم تحريضات عمته روضه وحرمه الست أمارة..)
ـ راما ! اتركينى أكمل نومى..
وراما! تدغدغه فى بطن قدمه ضاحكة.. لابد ان تنهض فصاحبك ينتظر!..
من؟ لابد انه هانى.. ماذا يريد هذه المرة؟..
اعتدل جالسا على طرف السرير.. أدهشه ان يرى كل هذه البهجة على وجه رمانة!.. وهو يعرف انها ستعود مع حسن.. ولكن كارهة مرغمة.. وكان يتوقع أن يرى تورم عينيها من البكاء واكفهرار سحنتها .. وطول لسانها كشأنها كلما حزنت أو غضبت..»
ـ خير ان شاء الله؟ ماالذى يبهجك فى عودتك لداير البحر؟
ـ تعهد الغريب واقسم على المصحف امام الحاجة روضه انه لن يرغمنى على زوج لا أريده..
وفى حجرة «الجلوس».. لم يكن هانى..
جاء رفيق بصوته الاجش..
ـ مكتوب علىّ وفوق جبينى يابن الشفقى.. كأنى خلفتك ونسيتك!
ـ ماذا تريد يابن الجوينى؟.. وقبل ان تجيب بكلمة .. موضوع رحاب غير مطروح لاى نقاش.
ـ وحياة الحاجة جازية؟ تريد ان تحرم علىّ مناقشة ما يتعلق بأختى؟..

حقا.. انت فاجر ابن فاجرة.. ومع ذلك لم آت من أجل رحاب.. جئت من أجلك انت وان كنت لا تستحق... هيا.. لايوجد وقت نضيعه.. الناس فى انتظارنا!
ـ أى ناس؟.
لم يتصور يوسف للحظة ان عبد الرحمن الرمادى سيظهر ثانية بهذه السرعة! ودق قلبه بعنف.. ما الذى أرجع الرجل إلى الاسكندرية بعد ان غادرها منذ الحادث مع افراد الاسرة جميعا؟.. وماذا يريد منه؟ السؤال ساذج.. والموضوع لابد أن يتعلق بقضية هالة وزين العابدين)..

صعود جبل النهار:

لم يتجها صوب الغرب هذه المرة، لزم رفيق الصمت عابسا وأدرك يوسف أنه قد جرحه حين فتح موضوع رحاب.. وانتهك مشاعر المسئولية داخله نحو اخته..
ـ لم اقصد ما قلت يارفيق.. لكنك تعرف قصتى مع رحاب.. وتعرف ما جنته ايديكم علىّ وعليها.. لم يجبه رفيق وظل مكفهرا حتى توقف أمام ذلك الفندق الفخم.
ـ إنزل!
لهجة أمر صارمة تشى بمدى ما يساوره من غضب!.. «نادرة تلك المرات التى غضب فيها من يوسف.. ولم يدم غضبه فى اى منها اكثر من دقائق.. كان يحبه لدرجة انه لم يناقش حتى مع نفسه درجة ارتباطه بصداقته.. حتى جاء ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام خلت.. حين انفجرت بينه وبين ابيه خناقة لرب الجو لانه طلب منه ان يبتعد عن

يوسف.. وانتهت بالجوينى الكبير إلى وجوم أخرس لم يفارق علاقته بابنه بعدها.. فالاول مرة يداخله الخوف من ابنه الذى راح يخور كالثور.
ـ اسمع ياحاج.. والله لو عاودت الحديث فى هذا الموضوع لأذهبن إلى السجل المدنى وادفع رشوة مليون جنيه لاغير اسمى من رفيق الجوينى.. إلى رفيق الشفقى.. وأقول للناس اننى فعلتها لان المرحوم خليل عبد البارى الشفقى هو ابى الحقيقى!.. مبسوط؟..»
لكن شيئا أقوى من الغضب كان يمنع الرجل من النظر إلى صاحبه أو الالتفات نحوه! هل يكون احساس مبكر بالذنب؟.. ربما.. فرفيق كعادته يساوى بين جميع الاحتمالات وان تناقضت..
الجناح الملكى فى الفندق يبدو وكأنه جزء من قصر حقيقى.. والرمادى.. وابنه.. ابو هالة.. يبدوان فيه كصاحبى جلالة بكل هذه الفخامة التى يرتعان فيها.. ولم يقطن يوسف فى بادىء الأمر لرجلين أو ثلاثة مجهولى الهوية يتناثران فى أماكن غير ظاهرة وقد برزت من نطاقاتهم تلك الغدارات الموحية بخطر لا يبين.
هش له عبد الرحمن وقد علت وجهه ابتسامة ودود لم يمنحه مثلها من قبل..
ـ أهلا بالصحفى النابغة! لعلهم يعاملونك الآن بالحسنى فى الجريدة!..
«بداية موفقة ياعم عبد الرحمن.. ها أنت تلوح بالجزرة قبل العصا.. وان خيبت ظنى.. فلم اكن اتوقع منك هذا الأسلوب المباشر الفج.. ربما كنت انتظر نوعا من المناورة الذكية.

لماذا يبتسم هكذا فجأة؟.. اتراه يقرأ الافكار؟.. ابتسامته هذه لاتعنى إلا معنى وحيدا:
ـ اصبر على رزقك فالأسطى لم يلعب بعد!..
فى وسط الثرثرة عن صلة قديمة تربطه برئيس التحرير فاجأه بسؤال الانتقال:
ـ ماذا قلت فى تحقيق النيابة فى قضية الشاب الذى وجدوه قتيلا خارج فيلا «هالة» بمارينا؟
(الرجل ثعبان حقيقى أفعوان مقرن.. يعرف متى يلف حول نفسه لينقض! المهم ان تحترس وتحاول دائما دفعه للانقضاض العشوائى الخائب.. وستذكر له ببساطة انك ادليت بما رأيت..)
ـ فعلا انت لم تر ملامح من كانوا هناك ليلتها!
ـ لكنى أعرفهم..
ساد صمت ثقيل.. كأن اطنانا من رطوبة الصيف المحتضر قد سقطت فجأة داخل الجناح الملكى فألجمت الألسنة وأعيت الأنفاس.. وجعلت من جو المكان وسيطا دبقا له طنين ذباب غير مرئى.
وبعد ثوان بطيئة متجمدة تزحف ببطء اللحظة الراهنة.. جاءهم صوت طفلة تصرخ فى تمثيلية تليفزيونية كأنها تكسر حاجز الصوت.. واشار الرمادى بإصبعه.. فانغلق جهاز التليفزيون..
ـ ايمكن ان تذكر لى اسماء هؤلاء الذين تعرفهم؟.
ـ حفيدك على رأسهم!
تدوجت كرة الثلج من القمة فى طريقها إلى السفح وراحت تستدير وتتكور وتتضخم.. حتى اصبح من المستحيل ان تصل لمستقر.. فحالة

الحركة الدائمة هى «وجودها» الخاص.. ومرت ثوان أخرى أطول من سابقتها قبل ان يخرج صوت الرجل كما كان.. رخيما.. وادعا كأنه يردد أشعارا يحفظها:

ـ هل ذكرت هذا فى التحقيق.

ـ سيدى أنا أعرف! ولكنى لم أر.. لهذا فلم اذكر اسماء.. كنت افكر تحديدا فى الفارق بين التاجر القاضى وبين الناجح والعادل.. (احس وهو يتدفق انه يقول اشياء لامعنى لها ورأى الرجل يحملق فيه متفرسا ويحاول ان يتبين اذا كان جادا أم هو يسخر منه..)

ـ ولقد كنت محددا فى أقوالى رغم محاولات المحقق ان يميل بها! واصررت على وجهة نظرى فى التفرقة بين الرؤية بالعين والمعرفة بالمنطق والادراك العقلى.. الاولى ثابته ثبات الجماد والثانية قد يداخلها الحدس والتصور (.. هل تخطى حاجز الصبر لدى الآخر؟.. ربما.. فالرجل يتململ) ـ اذا كنت تشك فى يقين ما تعرفه فلماذا تذكره؟

ـ حتى لاتبدو شهادتى بلهاء ويظن المحقق اننى اخشى ذكر الحقيقة!

ـ وصديقك الآخر؟ استاذ الجامعة! لماذا لم يفرق مثلك بين الرؤية والمعرفة؟

ـ لانه واثق من أنه رأى و«تعرف»!

كان رفيق طوال الحوار يرمقه بنفس النظرة الغاضبة والسحت المكفهر.. والآن تعلو وجهه مسحة من دهشه منزعجة.. وتحولت نظرته إلى تحذير مستغيث.. بينما تخللته هو مشاعر مسكينه صوفية

كأنها نسمات عليلة تتسلل فى يوم قائظ.. حتى لقد أحس بالتعاطف مع الرجل الذى وصفه منذ دقائق بالأفعوان.

وحين رآه ينهض من مقعده الوثير ويتمشى ببطء فى المساحة الكائنة بين شرفة الجناح والبهو الصغير المجاور لحجرة النوم.. مثيرا حركة تأمين مرتبكة لدى حراسه ومرافقيه.. كان على يقين من ان الرجل يعانى من حيرة حقيقية.. وحين توقف اخيرا بجوار مدخل الشرفة واشار له باصبعه ان تعال لم يضطرب أو يساوره اى خوف ومضى إليه حتى كاد ان يلاصقه ويحس بحرارة انفاسه المشبعة برائحة «التمباك».. ولاحا فى عيون الأخرين كأنهما صديقان يتساران بعيدا عن المسامع الفضولية.

ـ اسمعنى يابنى! أريد ان احدثك قليلا عن المملكة التى شيدتها واتربع الآن على عرشها.. أموال ترصف المتوسط من الاسكندرية وحتى أزمير أو نيتوسيا.. أعمال تفتح بيوت خمسمائة موظف وألفى عامل.. مصالح خلقت حولها سياجا من الحماية الشرسة لان العبث بها لايمكن قبوله أو السماح به.. كيان اصبح عامودا من أعمدة كيان اكبر هو اقتصاد بلد بأسره.. والمساس به دونه دماء تغرق الجميع! أنا أكره ما حدث مثلك تماما وضميرى لايقره.. والمسألة لا علاقة لها بحبى لحفيدى.. فالخطر اذا تفجرت هذه القضية سيتجاوزه إلى السمعة والصيت والمركز المالى وقيمة الأعمال فى السوق والبورصة وقد يؤدى إلى الخراب.. ويدمر هذه المملكة لتسقط انقاضا تدفن تحتها مئات الأرواح!.. شهادتك فى التحقيق متوازنه ولا اعتراض لى عليها.. وتفرقتك بين الرؤية

والمعرفة بعض من عبقرية تثير الاعجاب.. لكنى اطمع منك فيما هو اكثر.
سكت يتأمله .. ربما ليتعرف على رد فعله.. وكان يوسف منتشيا يبتسم ويكمل له ما يعنيه:
ـ شهادة هانى الكردى! أليس كذلك؟
هذا العجوز رأسه نافيا كأنما خاب أمله فى ذكاء الفتى.. ثم قاده بلطف إلى جلسة الشرفة.. ومنها كان النهار يطل من عل ليفرض غلالة من الرهبة المتوجهة على مخلوقات وأشياء صغيرة لايدانيه فى السيطرة عليها إلا الازرق المتوسط.
ـ صاحبك هانى أمره ميسور وسنتكفل به!
.. جاءه واحد من خاصته بالنارجيلة.. «أتريد واحدة؟ عندى تمباك إيرانى لايعادلة تمباك فى العالم.. واذا أردت معسل عادى (لزوم الحشيش) فلدى هبو لبنانى اصلى غير مخلوط.. اتعرف ان لى مزرعة فى سهل عكار بها محرقة حشيش خصوصى لتجميع «الهبو» .. لا تنظر لى هكذا! انا لا أتاجر فى المخدرات.. المسألة كلها لاستعمالى الشخصى واهداء الاصدقاء .. وصاح برجل الخدمة..
ـ جهز «قرشين» واوصلهما لبيتى الاستاذ يوسف والاستاذ رفيق!
وقبل ان يعترض عاد الرمادى إلى هدفه.. تحدث طويلا عن حاجة المصالح الاقتصادية الكبرى لدرع صحفى يحميها وعن ايمانه الراسخ بما يمكن ان يفعله صحفى وطنى ذو ضمير اذا تولى امر صحيفة جديدة ينوى الرمادى مع رجال أعمال آخرين ان يصدروها وشيكا.

ـ واذا أردت ان تكون اصغر رئيس تحرير فى تاريخ الصحافة المصرية.. فالمنصب تحت أمرك!..
.. كان النهار طويلا.. مجهدا.. صعب الارتقاء.. وكان المساء بعيدا.. غامضا.. منعما باحتمالات المساء طبعا هو أنسب وقت للزيارات الودية، ولو كانت مفاجئة وبدون موعد سابق. وقد رفض الخادم المسن ذو الوجه النوبى الصارم ان يسمح للضيوف بالدخول.. فلم تخطره الهانم انها تنتظر احدا.. أما الدكتور هانى فقد اغلق على نفسه حجرة المكتب وهذا أمر غير مباشر بمنع ازعاجه لاى سبب.. ولكن الحاح «الفتوات» الاشداء المتحلقين حول عبد الرحمن باشا دفعه آخر الأمر لادخالهم إلى الصالون.. ومضى يعلم أهل البيت وقد اوقن ان الليلة ربما كانت آخر عهده بالاسرة التى خدمها طوال خمسين عاما..
عتمة المساء تنسكب فى الافق.. وفى قلب يوسف وهو يشهد أنوار الاستقبال السفلى تضاء.. وفى محل الطعام السريع المواجه للفيلا راح يرشف فنجان القهوة الأمريكية وهو يغالب فضوله.. منع نفسه اكثر من مرة حتى لا يعبر الطريق ويدخل ليرى ماذا أتى بالرمادى الكبير إلى هانى الكردى.. ربما كانت هناك ارهاصات أو احتمالات تدور فى ذهنه.. وتتمحور حول لقائه مع الرجل فى الظهيرة (لا شك انه سيقدم جزرة أخرى للرجل الرقيق.. ليت هانى يتأنى قليلا ولا يفجر اللقاء قبل.. قبل ماذا؟.. قبل اى شيء فالغضب سيسد كل الطرق.. وعليه ان يحذره.. وهب مسرعا إلى التليفون..
ـ اخبرنى مسعود هذه اللحظة.. وسأرتدى ثيابى لاقابلهم..
ـ اسمع الرجل للآخر يادكتور لاتدع غضبك يفسد الأمر..

ـ كأنك تعرف ما يريد؟
ـ كنت فى طريقى إليك حين رأيتـه يسبقـنى.. وأردت ان ادركك قبل ان تمتطى صهوةالعزة بالإثم!
.. فى الصالون تمددت شحنه كهرومغناطيسية تشيع النفور والبغض.. (لم يتعود الرمادى ان يحب احدا وكان اللفظ نفسه يثير نفوره إلا اذا تعلق الامر بهالة.. منها لـله ـ هى سبب كل مـا يحـدث».. وهو لم يحاول ابدا ان يسـأل نفسه عن مشاعره تجاه اى ممن يتعامل معهم.. ولكنه الآن لايتمالك إلا ان يكره هذا الرجـل ذو البشرة البللورية التى تشف عن أدق شعيـرات الدم.. والعينان اللتان تبدوان مشـعتان بوهج ليلى مبكر.
وهانى يتـأمل الرمادى لأول مـرة عن قـرب بعد ان لمحـه سريعـا ليلة خسوف القمر ومصرع زين العـابدين.. وشعر ببرودة غامضة ترتجف فى أعطافه «الرجل له رائـحة الفورمالـين فى المشرحة مـختلطة بعطن رماد التمباك المنبعث من مياه النارجيلة عند تغييرها»
لم يرحب به.. سأله بجفاء عن سبب الزيارة..
ـ اتهمت حفيـدى فى تحقيق النيابة بأنه قتل ذلك الفتى ليلة عـيد ميلاد اقمتها فى بيتى!
ـ لقد رأيته!
ـ كيف يمكنك ان تراه فى ظلمة الليل بعيدا عن الاضواء؟!
ـ لقد رأيته!
ـ خدعتك عيناك.
ـ لقد رأيته!

ـ إصرارك هذا يشـير إلى نية مـسبقة للايقـاع بحفيـدى.. أجل.. فمن انت اولا.. وما الذى جـاء بك كثـيرة تبعـثرها الحيـرة فى طريق الليل كالالغام.

قارب يبحر على قوس الافق:

خـمر الظهـيـرة حارة تـلذع على اللسان وتـصيب الجـسـد بالخمـود وتتكسر وسنا تحت الاجـفان! لكنك لم تشرب خـمرا.. فماذا سـقاك الرمـادى؟ مـا الذى جـعلك تقـبل هدية المخـدرات تـصل إلى بيت الشـفقى فـى داير البحـر؟ ومـا الذى ابقـاك صامـتـا وهو يتلو عليك مـزاميـره؟ الافعـوان يقدم لك رشـوة صريحـة.. ثمرة الجـذر معلقـة بخيط.. ولكن العصا مختفـية! لماذا لم تجادله ليظهرها؟.. سيارة رفيق تقطع الطريق.. يقودها وقد ذهب عنه غضب الصباح وانفرجت عبسه ما بين حـاجبيه وهو يتـغنى بالسعد ووعد الرمـادى الذى يفتح أبواب الفـردوس.. رفيق راض عـنك لانك بدوت فى عيـنيه سـمكة مـيتـه خـرجت فى سنارة الرمــادى.. التــقطت الطعم يابـن الشـفــقى.. وانغرست الحربة فى حلقك.. فهل تستطيع الخلاص!..
ـ رفيق ! انت تعرف هؤلاء القـوم.. اتصل بهم فورا وامنع حامل المخــدرات من الوصــول إلى البـيت فى داير البــحــر! ابوس جزمتك!..
فاجأت لهجة التوسل ونبرات الفزع صديقه.. فرمقه مجفلا متسائلا..
ـ لاتفسد الأمـر فى بدايته.. سيعـتبرها عبد الرحـمن بك اهانة ويأخذ على خاطره!..
ـ يأخـذ على خاطرة أو يأخـذ علي قـفاه أو حـتى مؤخـرته.. المهم ألا

تصل الكارثة إلى البيت! لو رأتها خالتك جازية أو باطه أو وقعت فى يد حسن الغريب لقامت القيامة..
عادت التقطية إلى جبهة رفيق وهو يحاول الاتصال عبر المحمول.. (قيامة من يايوسف ياشفقى؟..
نسوة اى بيت فى داير البحر وفى كل شوارع بحرى يعرفن الحشيش ويقمن برص الجوزة للرجال.. أما حسن الغريب وسيد المرسى فهم من اساطين الصنف والمزاج فى عموم بر اسكندرية.. آه.. كل ما أخشاه ان تكون على وشك إفلات الفرصة.)
ـ يوسف! ابوس رجل من انجبوك انتهز فرصة عمرك ولاتغضب الرمادى.
كان رد يوسف مقتضبا ضاعف القلق لدى رفيق ولكنه اضطر للسكوت على مضض وان لم يتخل عن المحاولة.. قال لرحاب: اذا كنت تحبين ابن الشفقى حقا فاسدى اليه النصح! الرجل الكبير باداه بالكرم والملاينه وعرض عليه مفتاح المغارة وكلمة السر فإن لم يستجب كانت العواقب وبالا.. يوسف ليس ندا لاصغر مقاطيع عائلة الرمادى وعليه ان لايحاول ركوب الخيل والتظاهر بالفروسية وإلا فعصوه كالصرصار!..
حاولت رحاب ان تعثر عليه ولكن «تليفونه» المحمول لم يرد.. فقد نسيه فى سيارة رفيق.. وكان هو فى طريقه لفيلا لوران.. وحين شارف ناحية الشارع المتعامد على الكورنيش رأى السيارة نفسها.. سوداء طويلة.. فخمة بسته أبواب.. همس له رفيق حين شاهداها تخرج من مرآب الفندق لحظة انصرافهما: اترى هذه اللينكولين؟ انها سيارته المفضلة..

ماذا تفعل سيارة عبد الرحمن الرمادى أمام فيلا الرجل الرقيق؟.
إلى حفل فى بيتى لم أدعك إليه؟
لاحت على وجه هانى ابتسامة غاضبة تشبه إلى حد ما «تكشيرة» كلب أليف.. ثم استرخى فى جلسته ووضع ساقا على ساق بشكل يشير فيه بالحذاء نحو الرمادى..
ـ هالة ياسيد عبد الرحمن!.. هالة هى التى دعتنى وارسلت لى بطاقة باسمى مع زين العابدين.. عاشقها ووالد الجنين الذى ينمو فى أحشائها!
اصفر وجه الرمادى وتدلت شفته السفلى.. لكن عينيه ضاقتا وتجعد ما بينهما وبين فوديه.. بينما احس هانى بخنقة قلب طامنت من التوتر الذى أوجع معدته من لحظة اضطراره لاستقبال القاتل.. ولابد أن الابتسامة التى افترشت وجهه قد آلمت خصمه حتى النخاع.. ولكنها شحذت سكينة التى خبأها فى ثناياه..
.. وخرج صوته من قلب فارغ كطبل أجوف..
ـ انت استاذ جامعة ويقولون انك من النوابغ ومستقبلك يعد بازدهار! ولاشك انك تريد مواصلة حياتك بلا عثرات.. وانصحك بأن يكفى خيرك شرك..
لم يدرك هانى انه حاصر الرجل بإهانته ودفعه لكى يصل إلى الحد الأقصى! وانه لم يدع له فرصة لمجرد ان ينسحب بهدوء.. واصاب الموقف عبد الرحمن بما يشبه الجنون.. وتمنى لأول مرة ان يقتل بنفسه .. بيديه..! ولم يكن هانى قد اكتفى..
تأتى إلى بيتى مقتحما مهددا وكأنك تمتلك البشر والمكان والزمان؟..

وتظن انك قادر على الافلات؟.. استطيع ان استدعى الشرطة واتهمك بمحاولة قتلى انت وزبانيتك هؤلاء.. ولكنى لن افعل.. سأستمتع فقط بطردك.. ولكن قبل ان تخرج دعنى أبصق فى وجهك!

نذير الطوفان:

وجده يوسف بعد ان غادر الرمادى مكوما حول نفسه فى ركن الشرفة ذات القنديل الأخضر.. كان يرتعد ويتصبب عرقا.. واسنانه تصطك..

- ماذا بك؟ هل أذوك؟
- بل فعلتها أنا.. ثأرت قليلا لذكرى الضحية!..
- ولكنك ترتعد.. والجو ليس باردا..
- غطنى يايوسف بأى شىء.. إنها نوبة.. تعاودنى بين الحين والحين كلما انفعلت! الطبيب يقول انها نوع من الصرع!

«تعرف ياصاحبى؟.. أخوض فى المياه وأنا لا أجيد السباحة! أنا اضعف من دفقة موج .. لكنى لا أخشى البحر.. ربما أغرق فى شبر ماء وأغص بقطرة مطر لكنى اعرف كيف اقود سفينتى إلى الشطئان المأمونة.. لولا انى ربان أحمق.. أغرق قاع سفينتى

- انت تهذى يامسكين!
- بل أراه يايوسف.. الطوفان يقترب.. وقد رأيته اليوم فى عينى صاحبك الرمادى.

■ الفصل العاشر



.. أى نذر بالطوفان يراها الرجل يايوسف؟.. أحـقا لاتعرف ولاترى ما يراه؟ ألا تسمع الهدير يترامى من أقصى العمق هسيسا فخريرا ولن يلبث ان يصخب فى الغداة؟

.. فى الصدر تثقل الزفرات ولاتخرج مع الانفاس.. بل تسقط ألماً فى المعـدة تكوى له الأمعـاء.. والعودة مـن فيـلا لورا الى بين داير البحـر «هذه الليلة» ترسف فى أخلال الحزن..

لايمكن ان تكون قـد أحـببت الرجـل لهذه الدرجـة وخـلال تلك الأيام القليلة! بل إنك أحسست احيانا بكثير من النفور تجاهه! وداخلك عليه حنق وغـضب فى بعض اللحظـات.. وفى لحظات أخـرى تمنيت لو لم تجمعك به مـصادقة تلك الليلة!.. لماذا يبدو هكذا كأنه نقـاء محصن. لا أحد يمكن ان يكون كذلك فاكتـمال الخير وهم وتمام البراءة سراب.. ثم ان هناك درجة خفية من درجات الادعاء والتظاهر تلمع أحيانا فتشى بأن اعماق الرجل لاتخلو من احراش قد تقطنها الضوارى..

ماذا بك الليلة؟.. اتبحث عن تعلة تلاشى تعاطفك مع هانى؟ تريد ان تتنكر لما تجاوب له وتر فى صدرك حين رأيته مكوما.. ضعيفا.. يغالب صرحه ومخاوفه وينذر بمجىء الطوفان؟..

ـ لم أحزن طوال عمرى كما حزنت الليلة «يا أبله باطه»!
تربعت عطيات الشفقى على الأريكة «الاستانبولى» التى ظلت فى مكانها أسفل الشباك البحرى منذ وعى يوسف وتعرف على مفردات المكان.. تغيرت مواضع المنقولات وقطع الأثاث فى البيت أكثر من مرة بل تغيرت واستبدلت هى نفسها بقطع أحدث.. وبقيت الأريكة القديمة.. هناك أسفل الشباك العريض الذى يطل منه الجالس عليها ليرى التقاء الأفق بأعلى سراى رأس التين.
للمنظر فى ذاكرة يوسف صورة نهارية تسبح فى الشمس تصحبها صفارة الانذار من الغارات الجوية. قيل له فيما بعد ان هذا لابد ان يكون قد حدث فى تلك النهارات الثلاث التعسة من الشهر السادس فى العام السابع والستين.. حين أصيب «بالحصبة» وأرقدوه على الأريكة فى رعاية اخته الكبرى عطيات التى أصبحت بمرور السنين سيدة البيت الحقيقية باتفاق ضمنى بين الجميع بعد خفوت الضوء تدريجيا فى عيون الأم جازية وتخليها العملى عن مسئولية ادارة المنزل..
ـ اسأل باطه..
حسمت الجملة القصيرة المقتضبة الأمر.. فذهب الجميع الى «باطه».. وقنعت الست «جازية» بالمشاركة الرمزية كأن تسرد ذكريات الأسرة فى جلسات السمر وتشارك فى فض المنازعات الروتينية بأسلوبها المفضل وهو البكاء غالبا واستمطار اللعنات السماوية على كل من يعق الأم أو يتجاهل وجود الجنة تحت قدميها.. ثم الخلود الى اجتماعات «الجيران» فى الشرفات وعلى الأسطح وتبادل أخبار الغرف المغلقة فى بيوت الداير.

وحين تربعت باطه على الأريكة كانت تمارس سلطاتها المعترف بها
ـ دبرينى يا أبله باطه!
وباطه هو اسم التدليل الذى كان يوسف أول من استخدمه حين بدأ ينطق الحروف.. تعثرت كلمة عطيات على لسانه فخرجت «باطه».. ولقيت هوى لدى الجميع فصارت اسمها الذى تنادى به ليس فقط داخل بيت الشفقى.. بل فى كل بيوت شارع داير البحر.. واحد فقط ظل مصرا على مناداتها بعطيات.. ذلك هو الغريب.. حسن.. الشقيق الذى حل فى قلبها محل الأب.. بينما كان يوسف هو ابنها الذى لم تلده.. ووراءهما هى الابنة الشكسة الشاردة.. وما دونهم كان يعبر أفقها خفيفا لا يقيم.. سيد المرسى.. وعلى الأحسن.. لم يعودا من صلب البيت.. فالمرسى اعتزل الجميع داخل البيت مستقلا بحجرتيه المجاورتين لباب «السكة» فى الدور الأرضى وبزوجته وابنه الوحيد.. والأحسن أخذها من قصيرها وابتعد عن الحى كله بمملكته الخاصة..
ـ أرى فى عينيك حزن العاشقين «يا ولد يايوسف»..
ـ ليس للعشق نصيب فيما أعانيه الليلة يا أخت يوسف!..
حكى لها حكاية الرجل الرقيق.. والفتى الحنطى.. وبنت آل الرمادى.. وما حدث حتى انهيار هانى على اعتاب المساء ونوبة صرعه وهذيانه المنذر بالطوفان!
ـ يخيبك يا أحلى!.. ما الذى دفع بك الى «الفريق»؟
ـ ماذا أفعل يا أخت؟..
«أراك قد فعلت يايوسف! شهدت شهادة الحق فلم تساوم ولم تظلم.. فلا أحد بمقدوره ان ينحى عليك بلائمة.. أما صاحبك هذا

الذى تراه منساقا للجنون ويحزنك أمره فدعه لرب يتولاه.. وابعد.. إبعد يايوسف.. اذهب لعملك فى الجزيرة التى تأكل منها العيش واترك اسكندرية بمن فيها لمن فيها.. مصيبتك «ياوله» أنك تنساق وراء قلبك.. واتباع القلب ربما كان صوابا.. ولكنه مفعم بالخطر.. فالجراح لاتندمل.. والزمن ليس طبيبا كما نظن.. وها أنا كما ترانى.. جراحى ما برحت تنزف ومازلت ألعقها.. حتى أدمنتها.. أنا أقتات بدمائى يايوسف.. فابعد.. ولاتزدنى..»

.. أجهشت باطه بالبكاء وانكفأت الى مهجعها.. وأطبق ليل!

معزوفة الفجر الشاب

يتخمر قيظ النهار الصيفى فى خوابى الليل.. ويتقطر على أديمها بللورات من الندى المسكر.. أحلى لحظات النوم وأجمل تهويمات الحلم..

على الجبين تترصع كحبيبات ألق برقى يومض ثم ينطفىء ليسترد مكانها النسمات صبح موعود فى أحشاء الفجر.. ومن وعى الجسد الغائب يتسرب فى حنايا الخلايا المصطخبة تحت قشرة الدماغ شريط من صورة تتداعى بلا انتظام ولكنها تتشكل فى جوف الفوضى.. قرارا يوشك ان يولد.. فى شرفة قصر الرمادى.. وقفت هالة تواجه شمس الغروب وتخلع غلالة شفافه تسقطها حتى وسطها.. قالت له..

ــ اعرض صدرى للأشعة فوق البنفسجية فى شمس الساعة الأخيرة للنهار..

تحمل ثدييها فى كفيها.. تلقم أحدهما لزين الضاحك.. الذى يختفى

ليحل هانى محله.. وتربت على رأسه بحنو.. ثم تمسح دموعه التى انزلفت.. ثم تساقطت على زهور يحملها فى يديه.. وعبدالرحمن الرمادى يصرخ من حديقة الشاطىء بلا صوت.. ويعبر بابا الى سرداب مظلم ليخرج يوسف بعدها الى تلك الشرفة ذات القنديل الأخضر.. ونانسى تدعوه للاستلقاء معها ومع أم هانى.. بينما تراقبهم رحاب ضاحكة وترمقه بنظرات داعرة.. وحين احتضنته نانسى.. أدرك أنه يحلم.. وساورته مشاعر الخيبة وعدم الاكتمال..

ينفجر الصون من مكبر معلق بمئذنة الجامع فيوقظه لأن تزامن مع انتهاء الحلم.. ففى العادة لاتوقظه أصوات الأذان لأن تكرارها اليومى حولها مع صوت مرور الترام على القضبان الى ثوابت رتيبة لاتفاجىء.. ولاتذبه! أحس بأن الرطوبة تبلل الفراش فقفز منه الى الحمام.. كانت المرة الأولى ــ ربما منذ سنوات ــ التى يستيقظ فيها ليلا.. وهو يعرف قياسا على السوابق أنه لن يستطيع النوم مرة أخرى..

اندفعت مياه «الدش» قوية باردة ليشهق فى اعتياد ثم يسلم نفسه لحذر تلك الدغدغة النابعة عن التقاء الماء البارد بالجسد الحار.. وكان المؤذن يردد فى إصرار ان الصلاة خير من النوم.. تذكر يوسف لحظتها انه لم يزر ضريح المرسى أبوالعباس منذ عامين تقريبا وأحزنه هذا لعواطف حميمة كان تربطه بالمسجد وبالولى شفيع الاسكندرية وقرر ان يصلى الفجر هناك!..

قرب المقصورة لمحه جالسا يبكى! هاله ان يرى حسن الغريب وقد عسلت وجهه دموع تنساب بلا توقف وبعد ان هم بالاسراع نحوه

أحجم وقد أمره وازع داخلى بأن يترك الرجل وشأنه.. لم يكن حسن درويشا ولم يعرف عنه يوما اسرافا فى التدين.. كان يصوم ويصلى.. على قدر الفريضة دون تطوع أو تزيد وحين قيل له أن على الاحسن قد حول الطابق الأرضى من عمارته الجديدة الى مسجد وأنه اطلق لحيته بعد ان أدى فريضة الحج «السياحى» مع زوجته أماره وعمته «روضه».. ابتسم حسن بغموض وعلق ساخرا.

ـ يفعلها الأحسن والأجر على قدر النية والهدى من الله!

قرب باب المسجد المواجه للبحر.. جلس يوسف مترقبا طلوع النهار وشحوب زرقة الفجر وتحولها الى ذلك اللون الليلكى يبهت بعد برهه ليسود ألق الرماد.. كم أحب فى طفولته ان يصحب الحاج خليل عبدالبارى الشفقى الى صلاة العيد قبل الشروق وتلك الترنيمات الشجية لتكبيرات العيد.. فى البكور الآصال.. تتكسر الأضواء فى الأجفان.. تفتح العينين.. ثم تغمضان.. تأخذه تلك السنة من النوم ويركن رأسه على العمود البارد مواجها البحر ويمر بجانبه حسن الغريب فلا يرى أحدهما أخاه.. «شىء يتخلق فى عمق العمق يابن الشفقى.. لقد جمعت شطر المحراب وقررت ان تفعلها..» لم يكن وحيا ذلك الذى طاف بإغنائته اليسيرة قرب باب المرسى.. كان إلحاحا داخليا يخرج من غمر الرهبة والتردد ليخلق حالة استبسال عنيد طالما تملكت الحمقى والشهداء..

طلب من راما كوبا كاملا من القهوة المغلية.. وأغلق على نفسه باب حجرة البرج وانكب على أوراقه.. وظل يكتب طول النهار..

وفى المساء لقى رحاب عند «صوفى»..

ـ عيناك مثل كاسات الدم! ووجهك شاحب.. ماذا بك..؟

أخبرها انه لم ينم.. وأنه ظل يكتب طوال النهار..

«أتدرين ماذا كتبت؟.. القصة كاملة.. بأدق تفاصيلها.. حكاية الفتى الحنطى مع بنت الرمادى.. ومشهد مصرعه بالرؤية والمعرفة.. وأقول هانى الكردى بحذافيرها.. اتعرفين ماذا ينقصنى لأحقق سبق العصر والأوان.. شهادة أسعى إليها.. وسأحصل عليها قبل ان أتقدم بموضوعى لرئيس التحرير..»

هل كان لسانه ثقيلا متلقما يفعل «المرتسينا» التى قدمتها لهما صوفى.. أم هى قلة النوم؟.. أراح رأسه الى كتفها وهمس.. النوم يارحاب.. النوم..

.. اقتربت صوفى وانحنت على أذن رحاب تهمس لها.. ثم دست فى يدها المفتاح «لا أحد فى الشقة.. خذيه الى هناك»..

«أهو حلم الليلة الماضية يتكرر؟..» لم يكن يوسف ثملا.. لكن احتياجى الى النوم كان يؤرجحه على حافة رجراجة بين الانتباه والغنوة.. وفى ركن بعيد من الحجرة المحرمة داخل العقل الباطن كان يعرف ماذا يحدث «الآن» بينه وبين رحاب..

نقطة ساخنة على خط المساء المثالى

لن يغفر له رفيق أبدا ما استدرجه اليه! «لم تكن هناك وسيلة اخرى سريعة يعرف بها عنوان وهاتف المقر الخاص لأسرة الرمادى ــ فلفق له تلك القصة عن ضرورة ابلاغ عبدالرحمن باشا بخطر ماحق وحماقة كبرى ينوى هانى الاقدام عليها»

.. أتاه صوتها عبر الهاتف جافيا حذرا ــ ماذا تريد؟..

ــ اذا كان دم زين العابدين إمام يعنى لك شيئا فدعينى القاك!
كان الأسلوب فجا انشائيا كان يراهن على بقايا غضب يساورها ونقمة ظلت تبحث عن قصاص.. طلبت منه ان يعطيها مهلة وستتصل هى به..
وفى الفندق ظل عمرو يراقبه والفضول يكاد يفتك به.. «ألسنا أصدقاء؟.. لم لاتصارحنى..» ولأول مرة عامله يوسف بقسوة مهينة شريرة «عجبا.. تريد ان اشاركك ثمرة جهدى واكشف لك موضوعى؟» فازور عنه زميله مجروحا.. وساعتها أتاه الرنين المنتظر.. كانت هى.. حددت له المكان وطلبت منه ان ينتظرها وستوافيه بعد ساعة!
.. تبدت وهى تدلف من باب مشرب ذلك الفندق البعيد الرابض على حافظة الصحراء ــ فتاة أخرى غير تلك التى رآه ليلة عيد ميلادها.. أبدا لم تكن هى..! تحولت حفيدة الرمادى الكبير الى ظل يرسف فى كآبة ضافية.. نحلت بشكل لايصدق.. وغارت العينان فى المحاجر معتمة مطفأة الا من نظرة تفلت فى لحظات بعينها بارقة بألم حاقد وغضب مقيم لايقاربه تسامح او غفران.. وقبل ان تستقر فى مجلستها قرأت عينيه..
ــ تعجبين من سقمى! صحتى هى العجب!
لم يفهم.. وتوفاه مشتهما فأوضحت باقتضاب «بيت من قصيدة يغنى فيها وديع الصافى مع فيروز..» تذكر الأغنية فاعتذر فى خجل.. بينما ابتسمت هالة فى غير مرارة:
ــ تعرف أننى حامل؟..

أذهله وأربكه فى آن ان تتعامل معه بهذا الاعتياد والزلفة رغم ان كل ما بينهما مكالمة هاتفية.. ولقاء سابق فى ليلة القمر المخنوق يذكره هو ولاتتعرف هى على ملامح تذكرها منه.. «لعلها كانت تنتظر! لمسألة النسبة اليها انك صحفى.. وهى تريد صحفيا»..
ــ الجنين فى احشائى هو ابن زين العابدين!.. وجاسر يعرف.. الكل يعرفون..
وبثرت ضحكتها العصبية فجأة لتسأله متجهمة: ماذا تريد؟
شرح لها مايريد.. ثم ضغط أمامها على زر تشغيل المسجل.. وانساب كلامها متصاعدا كالتيار حين يتحرك أولا على أرض مستوية ثم يصل الى قرب المسقط فتتضاعف سرعته ويهدر ثم يتدفق منفجرا وهو يسقط حيث لا حساب ولا حذر ولا عاصم من الغرق!..
اشتعلت الأمسية بعاصفة النار! لم يعد جو القاهرة وحده مصدرا للهيب وانبهار الانفاس.. حين انزوى يوسف فى حجرته وراح يفرغ محتويات الشريط.. آلاف النقاط الميكروسكوبية تحت جلده تئز وتطن كأنها مولدات كهربائية.. «رباه!.. أيمكن ان يكون الأمر حقيقيا الى هذا الحد.. أم أنه مجرد حلم يداعبه عند حافة الوعى؟.. هل التقى حقا بحفيده عبدالرحمن الرمادى..؟ وهل هى حقا صاحبة الصوت المسجل على شريطين كاملين..؟ وهل ذكرت كل هذا فعلا؟ ألا تخدعه أذناه؟ ألا يمكن ان يكون سادرا فى الوهم؟.. كان يسمع عمن يقرص نفسه ليفيق اذا كان نائما.. لكن.. لا.. انه فى كامل وعيه ويقظته وهاهو القلم بين اصابعه يتحرك محموما على الورق.. ولمدة ساعات طالت حتى انتصفت الليلة.. خرج بعدها الى «الروف»..

نسمات الخريف الهاربة من ربقة الاختناق فى مدينة لم تعد تتنفس.. انقطع عنها الأوكسجين فازرق جلدها.. تتلكأ عبر مسارات سرية لكنها تصل فى النهاية كهمسة اعتذار.

ــ أقف الآن يا عمر على عتبة قد تنقلنى الخطوة بعدها الى مجد يرفعنى للأعالى أو تسقطنى فى بئر بلا قلاع.. ولاتسألنى عن تفاصيل.. فقط أشر علىّ بما أفعل.. هل اذهب بقصتى الى فوزى الشماع أم اقدمها الى منافسه الآخر فى دوائر القوة الصحفية؟

ثار عمرو الكاشف بلا مبرر «ماذا تخفى؟.. انها نفس القصة! حدوته فتاك الحنطى وبنت الرمادى.. على من تتلو مزاميرك القديمة الجوفاء؟ العتبة التى تقف عليها ستغوص فى رمال متحركة لاتعرف اسرارها بعدا!.. اذهب بموضوعك الى الشماع أو الى الجن الأزرق أو اسرح به فى سوق «الكانتو» الذى تسميه دوائر القوة الصحفية.. لعل المجد الذى يرفعك الى الأعالى ينتظرك هناك على سن خازوق» كان مزاج الكاشف عكرا ــ وأبه فى الفترة الأخيرة ــ وعن ليوسف الذى يحلم بالآتى ان يثير غيظه فهمس فى رصانة..

ــ اغفر لهم يا أبتاه فإنهم حمقى لايفقهون!..

ــ نعم ياروح خالتك؟.. هل اختلط عليك الأمر فصرت عيسى بدلا من يوسف؟ اشخر لك؟

ضحك يوسف وصالحه وأخبره أنه يود ان يتفرج الليلة على جلسة «البوكر».. كانت مكافآته لنفسه قليلة ومتواضعة.. ولم يرد الليلة ان يختلى بنفسه.. حتى لايواجه ما فر منه منغمسا فى اعداد تحقيقه الصحفى!.. كان ما حدث بينه وبين رحاب فى بيت صوفى فى كارثة

بكل المقاييس وهو لايريد ان يناقشه ولو خفية.. فماذا يمكن ان يفعل حيال بكائها وانهيارها والقصة المرعبة التى روتها له؟ وما الحال التى تنتهى اليها مشاعره اذا فكر فى الأمر؟..

حول المائدة المستديرة المعدة خصيصاً بقطعة الجوخ الأخضر.. وعلب «الفيش» ومجموعات أوراق اللعب الجديدة.. التفوا أربعة وخامسهم منعم الصرفى.. بينما اختار يوسف مقعدا خارج الدائرة وفى المساحة الفاصلة بين كتفى عمرو.. ومنعم.. لتتيح له مراقبة أوراقهما.. كان يستمتع بمراقبة هذه اللعبة بالذات.. ويشغف بمتابعة الحالة الانفعالية لدى الجميع.. وقد حرص دائما ان يبتعد فى جلسته عن آخرين يبدون تزمرهم واعتراضهم على ان يراقب أوراقهم شخصا خارج اللعبة.. مسألة تشاؤم ومداعبة للخط كما يقولون!.

ويقولون ايضا ان لاعب «البوكر» الماهر هو الذى يتحول وجهه الى قناع جامد لايشى بأى تعبير ولاينم عن أى انفعال ليستطيع ان يمارس به خداع اللاعبين الآخرين أما اللاعب الفذ فهو الذى يتفوق فى خداعه الى درجة ايهام منافسيه بأوراق ليست فى يده..

ولكنك تملك الأوراق الرابحة فعلا يابن الشفقى! معك «كنت رويال».. مجموعة الفوز الكاسح الذى لايمكن تحديه..

مال رأسه على ظهر المقعد وقد غلبه النعاس.. ومن بين جفنيه خايلته صورة فوزى الشماع وقد راعه مايقرأ..

انتصاف دائرة النهار

.. ولفوزى الشماع كلمات تتربع فى صدارة أقواله المأثورة التى يلقنها فى كل مناسبة للمحررين والصحفيين فى جريدته! يقول لا فض فوه

ان نشوب الحرب العالمية الثالثة أو شروق الشمس من الغرب اخبار لاتبرر اقتحام مكتبة ـ قدس الأقداس ـ بدون موعد سابق او استدعاء شخصى منه.. لهذا فقد ظل فاغرا فاه منصعقا.. وهو يفاجأ اندفاع يوسف الشفقى من باب السكرتارية ليصبح أمام مكتبه يكاد يلاصقه.. وخلفه يندفع الحرس الشخصى مع طاقم السكرتارية بأجمعه..

ـ طوال ساعات الصباح وأنا أحاول مقابلتك بالطريق الرسمى.. لكنهم أصموا آذانهم دونى فلم أجد بدا عن اقتحام محرابك.. ولم أكن لأفعل لولا ان الأمر خطير.. تتجاوز خطورته كل خيال..

.. أحس فوزى الشماع لأول مرة بالارتباك. شيء ما فى بهجة هذا «الولد» يمنعه من التنكيل به.. وأصابه هذا بربكة التقطها يوسف..

ـ قنبلة فى قضية عبدالرحمن الرمادى!

وساد صمت بدا فيه هسيس المكيف كأنه الصخب بعينه.. وتجمدت نظرة الشماع خلف نظارته السميكة.. وعبرها ظل رمادى مرتجف.. ولكن أصابعه أصدرت أمرا فهمه الآخرون على الفور.. وحين أغلق الباب.. لم ينتظر يوسف.. ألقى بأوراق التحقيق على المكتب..

ـ اقرأ بنفسك ياسيدى!..

.. خلع فوزى نظارته.. وراح يمسحها وهو يحدق فى وجه يوسف الذى تصبب عرقا رغم برودة التكييف.. وبدا وجه الرجل بدون نظارته مختلفا تماما.! فحول عينيه تلك الجيوب التى تشير الى علة فى الكبد واتساع المحجرين يرسم صورة ماجن قديم.. أما ما تبوح به النظرة فهو الملل المشوب بالعتاب الغاضب..

ـ ماذا أقرأ ياعبقرى؟.. اتراك قد استطعت ان تضع الرجل فى جيبك بهذه السرعة؟.. م الذى فعلت على وجه التحديد.. خبرنا متى نستفيد من بركاتك ونتبع خطاك!

ـ لم تفهم القصد على حقيقته يا استاذ.. أنا لم أكتب موضوعا دعائيا للرجل.. بل اعتقد انه سيجن جنونه حين قرأه..

ثارت الشكوك فى صدر الشماع.. وتناول نظارة القراءة.. وبأصابع متوترة عصبية تناول الأوراق.. لم يكن فوزى الشماع فى بداياته صحفيا رديئا ولم يكن رجلا سيئا.. كان فقط كيانا قابلا للتشكل على أى صورة تحتمها «الظروف».. كان فى العهد الشمولى من صحفيى الدولة المرضى عنهم فى مكاتب الاتحاد الاشتراكى.. وكان محسوبا على واحد من الأمناء المقربين لعبدالناصر شخصيا.. وفى عنفوان ولاية السادات كان من بين بطانة المريدين وجعل من تاريخ قديم.. عمل فيه بمكتب السادات حين تولى أمر الصحافة.. لافتة يزدان بها جبينه.. ثم جاء العهد الجديد فأصبح بعد رحلته الشهيرة الى باريس وأدى خلالها خدمات جليلة للدولة واحدا من كبار الصحفيين الذين يخطون قمم أهم الدور الصحفية.. ولا يدرى أحد متى بدأت الهمسات تتناوش سيرة الرجل.. وعلاقاته وارتباطاته الوثيقة مع كبار رجال المال والاقتصاد.. وحين ارتفعت أصوات الهمسات لتصبح لفظا يصل الأسماع بقى أمر واحد لايختلف عليه أعداؤه وأصدقاؤه..

ـ هو صحفى «عقر» و«جورنالجى حريف»

ولاشك ان الأمر بدا محيرا هذه المرة.. فوزى يعيد قراءة التحقيق

للمرة الثالثة وهو يغالب انفعاله الذى ظهر جليا لعينى يوسف الذى راقبه متابعا دون ان تطرف له عين.

وفجأة أزاح الرجل الأوراق بكلتا يديه حتى القاها ام حذاء يوسف الماثل أمام المكتب كالتمثال..

ـ ماهذا الهراء الذى سودت به الصفحات وجئتنى به أيها التافه؟.. «تفبرك» موضوعا هكذا وبكل صفاقة وبدون اثبات او توثيق للمصدر؟

كان يوسف يكاد يوقن بأن فوزى سيقول ويسأل.. ويكاد بنفس الحروف ان يستدل على صدق حدسه.. وكان مستعدا..

من جيبه أخرج شريط الكاسيت ولوح به أمام عينى الشماع!..

ـ أتعرف ماهذا ياريس؟..

ـ أراه جيدا فلست أعمى..

ـ انه اعترافات بنت الرمادى.. كاملة.. حتى الثرثرة وهمسات ما كان يجرى بين جدها وبين خلصائه.. وتفاصيل تحالفاته واتفاقياته.. واسماء من وضعوا فى كشوف نعيمه الأرضى..

.. اقترب يوسف من المكتب.. تحطمت كل الحواجز.. وتلاشت الهالات.

ـ هى نسخة مهداة اليك ياسيدى.. لتعيد سماعها مرة بعد المرة.. وغدا سأرى تأشيرتك الحاسمة على صدر الصفحة الأولى «تنشر»!.. أليس كذلك!

.. ومرت سحابة اليوم.. وفوزى ملازم مكتبه.. أمر بقطع كل الاتصالات ومنع أى كان من الدخول..

.. وراح مرة بعد مرة.. يسمع ويعيد سماع هالة لرمادى..

.. «المجنونة! لو ان جدها عبدالرحمن هو الشيطان بعينه لكانت أرفق به من صفاته التى ذكرنها بحدة جارحة.. ولماذا أفشت كل ماتدفقت به من أسرار.

ما الذى تفعله الآن ياشماع؟.. وأى عاصفة تحلق فى أفقك؟! هذا الولد يوسف يحتفظ دونما شك بنسخة أصليه من أقوال الفتاة!.. والتحقيق بهذا الشكل قنبلة هائلة.. لايمكنك ان تتجاهله ولو ذهب به الفتى الى الواشنطن بوست بجلالة قدرها لنشرته وجعلته مليونيرا.. أى واشنطن بوست يافوزى؟ عجزت وعجزت.. وكل بصرك كما كلت حاستك القديمة.. لاتدع الفتى يفلت الى حيث تتناوشه الأضواء والاغراءات.. ادفع به.. ضعه فى فوهة المدفع «وأطلق سبابا طويلا متنوعا.. قال.. أم أى اعتبار آخر..»

انشطار الدائرة

فى الهاتف جاء صوت هانى خائرا ضعيفا يسأل: أحقا ما تقول؟.. وأكد له بقوة.. «وأمهلنى الرجل الى الغد.. ولعلك تقرأه فى نسخة اليوم الثالث».. ساد صمت طويل حتى ظن كل منهما ان صاحبه قد انهى المكالمة..

.. فى الاسكندرية.. كان هانى راقدا فى فراشه يعانى من حمى هاجمته صباح اليوم التالى.. وفى فندق وسط المدينة كان يوسف عاكفا على نقل نسخ أخرى من شريط هالة..

.. أما فى مكتبه فقد توصل فوزى الشماع الى ما ظنه حلا عبقريا.. سيأمر بنشر التحقيق.. فلا مناص! ولايوجد صحفى بقيت لديه ذرة

من احـترام النفس وحب المهنة يمـكنه ان يتجـاهل مثل هذه الخـبطة.. وفى الوقت نفسه يمكنه تأمين جبهة الرجل الكبير..
بدت له الفكرة براقة قادرة على حل الاشكال.. ولم يضيع وقتا.. بعد ثوان رد عليه الرمادى.. وعندى ما أريد ان تسمعه.. والأمر خطير!
ــ يمكننى ان اسمعه على الهاتف..
ــ هاهو..
ألا تعلم أيها الصحفى الكبير النابه أنك فعلت أمرا ادا؟.. ألم يساورك الشك لحظة فى أنك تدوس شرف مهنتك بقدميك؟..
هاجـمه الخـاطر كلدغـة ثعبـان جـعلتـه يقفـز فى مكانه «لعلك أيهـا الصحـفى النابه الكبير.. قـد أصدرت الآن حكمـا بالإعدام على هالة حسين الرمادى.. ألم تفعل؟»

الفصل الحادى عشر



مدار الشمس العجوز

حين رأت هالة فوزى الشماع يغادر مكتب الرمادى الكبير خفقت فى صدرها دقة طربه ادركت ان يوسف الشفقى قد سدد الضربة وأن الشماع هرع للجد ينذره.. وحين خرج الرمادى الى حيث تجلس رأته شاحبا متهدل الكتفين ينوء بأحماله القديمة وكأنها لم تسقط الا اللحظة.. لم تره طوال عمرها مثلما تراه الآن.. مثيرا للشفقة والرعب معا.

ـ لماذا فعلت هذا؟..

بدا صوته وكأنه يصدر عن شخص آخر.. بعيد .. خلف الجدران.. أرادت ان تضحك فلم تستطع..

ـ الشماع دمية فى يدك! إمنعه من النشر..

جلس على مقعد قريب وبدا كصديق يريد أن يشاور ويلتمس النصيحة..

ـ لايستطيع! الفتى ابن الشفقى وثق موضوعه ودعمه بتسجيلات صوتيه.. وإذا رفض الشماع أن ينشر له فسيجد آخرين يتلهفون ويجزلون له العطاء!..

صمت لحظة حتى بدا وكأنه راح فى اغفاءه أو أنفصل عن وعيه.. وحين أيقنت أنه سيظل صامتا وهمت بأن تغادره هتف بالسؤال مرة اخرى: لماذا فعلت هذا؟

ـ وفاء لحق الرجل الذى أحببت!

ـ تنتقمين للسافل الذى استباحك والقى فيك بذرته سفاحا؟

ـ تغضب للاخلاق ياشيخ الصالحين؟ تتحدث عن الاستباحة وتنسى ماوطأت من أرواح واجساد وأعراض؟ تتحدث عن السفاح وأنت تسافح الشياطين ليلا وتخادنهم نهارا؟

.. رفض الرجل ان يصدق ماسمعه.. وقرفى ذهنه انها تهذى أو تقرأ فصلا فى كتاب.. فبدا رده وكأنه نطق علوى يفارق تخوم الوعى.. (لا استطيع أن أقتلك! ولاأستطيع ان امسك بشر.. انت لم تكونى أبدا حفيدة.. كنت زهرتى الوحيدة التى تبرعمت واشرقت فى مسائى الغارب.. كنت البنت التى تمنيتها فلم تجئ فكرهت أخويها.. حتى إذا انجبها اصغرهما نال مغفرتى لمولده.. كان مولدا تعسا.. وكان..)

كان الرمادى يبحر فى ركود بركته الاسنة.. ويضرب بالمجداف لتتقافز الاسماك الميته.. خيل لهالة أنه لابد يعانى من خرف ثمانين عاما تتهدل على كتفيه.. (أبوكى وعمك لم يكونا من صلبى! فأنا عقيم.. لكنهما ولدا فى بيتى فأصبحا ولدى.. الحيازة فى المنقول سند الملكية.. هاها.. والعرق دساس.. ترين الآن جاسر ابن عمك.. ذلك النغل يرحب بأن يتزوجك وفى بطنك جنين عشيقك ويرحب بأن ينسب اليه هو! اتعرفين؟ قد يظن الناس انه نوع من الخسة وانعدام الرجولة.. ولكنه ظن أحمق.. فهذا التسامى فوق مشاعر الغيرة والحقد وشهوته التملك هو قمة السمو.. هو انسلاخ عن غريزة الحيوان واتحاد مع شفافية الروح وانعتاق الجوهر.. فى شبابى روج اعدائى إشاعة تقول أننى أصادق عشاق زوجتى.. وأنها تضاجعهم فى وجودى! والواقع أننى لم أعن كثيرا بتكذيبهم.. وفعلت ماهو أهم وأجدى.. أغريت زوجاتهم جميعا ثم كونت منهن شبكة دعارة.. والتقطت لهن صورا وأفلاما خلال ممارساتهن الفراشية.. وبها سحقت هاماتهم ودعست أنوفهم فى الرغام.. هاها .. هاها).

هل نام عبدالرحمن الرمادى أثناء سباحته فى بركة ذكرياته؟

نعم اخذته سنة من النوم .. ترك فيها تيار ذكرياته ينداح على لسانه ويختلط فيه الضحك بالحكى بالغطيط.. وتفرغ للتفكير فيما يجب ان يفعل؟..

«فلتكن هذه تحفتك الاخيرة ياعبدالرحمن.. فلتكن قمة ابداعك.. على جبهات ثلاث سترسل قواتك الضاربة.. أما الخطة الميدانية فلابد أن تنضجها على نار هادئة.. نم قليلا.. ثم انهض لتتناول كأس الشفق.. ثم وجبة المساء.. وفى السهرة تلتقى بحواريى العشاء الاخير».

..دعت هالة من حملوا الرجل الى فراشة.. وتحت المقعد الذى غادره رأت بركة صغيرة من البول تفوح منها رائحة جيفة منتنة!

.. كانت هالة تشم دائما روائح غريبة فى كل بيوت الرمادية! رغم العطور التى ترش فى الأرجاء ليل نهار.. فمعها تتسلل دائما تلك

السحابات الثقيلة تكاد تلمسها الانامل لروائح ملابس داخلية يصمغها العرق وافرازات تسلخات الجلد فى جوف الثنيات الدقيقة.. (فى سن الثانية عشرة فعلها معها ذلك الرجل الذى جاءوا به ليعلمها البيانو.. كان يحيطها دائما بذراعيه حين ينظم لها وضع اصابعها على مفاتيح العزف.. وكان يلتصق بها وتحس بأنفاسه اللاهثة اللاهبة تلسع خديها ورقبتها بينما يرتطم عضوه بعجيزتها فى إلحاح.. حتى كان ذلك المساء.. الذى كانت ترتجف فيه كل نأمة فى جسد الرجل وتخرج من بين شفتيه فقاعات لبنية.. ثم يفتح ازرار سروالة.. كانت المرة الاولى التى ترى فيها «عضو» رجل مكتمل.. وفزعت لكن فضولها غلبها.. ثم شاعت فى الجو تلك الرائحة التى زكمت انفها.. كبخار يخرج من السروال المفتوح.. (عرفت فيما بعد ان تراكم السائل المنوى دون تغيير السروال.. مع تسلخات مابين الفخذين تنتج هذه الرائحة).. وتقيأت هالة يومها والتصقت بأنفها تلك الرائحة فلم تنج منها الا خارج بيوت الرمادى! وكم كرهت تلك البيوت وكرهت كل قاطنيها..

تحسست بطنها فى حنو أحست بذقن زين تنغرس فى كتفها كما كان يفعل حين يتسلل ليفاجئها ويمرغ وجهه فى شعرها ويداعب بشفتيه شحمة أذنها فتنتفض وتستدير اليه لتلتصق بأحضانه وتهمس قبل أن تلقمه شفتيها.. «أعصرنى حتى تحيلنى الى شراب ذائب فى فمك ينسكب من شدقيك الى عنقك الى صدرك.. دعنى اتخلل مسامك.. أصبح بعضا من نسيج أديمك!.. عد يازين.. لاتكن وهما.. لاتتبخر حلما.. فبعضك يسكننى.. وماؤك روى ارضى..

وعشبى ينمو مخضرا.. ويتفرع فى شراييني يورق ويزهر ثم يثمر.. آه.. كم أخشى ياحبيبي أن يفعلوها قبل نضوج الثمرة.. فتعطب وتموت قبل ان تنفصل عن فرعها.. وبكت هالة.. كان يساورها ذلك الهاجس الذى لمحت نذره فى عيون الرمادى.. هاجس يخبرها بأنها حين تحدثت مع يوسف الشفقى قد جدلت حبلا يمكنه ان يشنق الرجل العجوز.. ولكنه لابد أن يلتف اولا حول عنقها!

وحول سريره.. كانوا قد جففوا بلله.. وغيروا ثيابه وضمخوه بكثير من العطر.. والتفوا حوله.. ينتظرون النطق السامى.. (لم يكن فيهم من أحب هذا الشيطان العجوز حقا.. وليس منهم من لايتمنى أن يشهد مكفنا ملثما يساق الى قبره.. ولكنهم يخضعون لعبيد اورثتهم أجيال الرق والنخاسة ذلك الاستسلام القدرى لنزوة النخاس وغلمة السيد).

راقبوا بؤبؤى العينين يدوران مليئين بحياة تتنافر فى فظاظة فاقعة مع مايحيط بهما من جفون متهدلة وجلد ميت مترهل يكاد يتخلله دوده حتى قبل ان يتحلل..

تابعوا حركة شفتين يخرج منهما الكلام واضحا جذلا كأن شابا فتيا يختبئ فى جوف الشيخ الفانى!! «هالة تتزوج جاسر غدا! تسمعون؟ غدا وليس بعد غد.. فى بعد الغد يسافران ليقيما فى أى مكان العالم لايعودان منه الا بأمرى.. أما بعد .. هناك ثلاثة يجب ان تعدوا لكل منهم سكة من سكك الندامة حيث لاعودة.. ابوالولد فى غبريال.. وذلك المخنث فى لوران.. ثم الصحافى ابن الشفقى فى داير البحر..»

خط الاستواء الكاذب

نظر فوزى الشماع الى الصفحة التى حوت «تحقيق يوسف الشفقى عن.. فاجعة الشاطئ المخملى.. عفاريت مارينا تخسف القمر وتغرق الفتى العاشق.. تفاصيل الجريمة على ألسنة الضحايا»

وساوره الاكتئاب وهو يتأمل الصور الثلاث.. زين.. مدرس الجامعة الصريع.. وهالة حفيدة الرمادى.. وهانى.. استاذ الجامعة وشاهد العيان!..

كانت «البروفة» .. وأعضاء «الديسك» الذين استدعاهم على عجل.. يتبادلون النظر فى صمت.. وهما يتابعون الشماع اثناء اكتئابه.. يضع قرص فوار فى كأس الماء ثم يجرعه.. وينهض ليقف بجوار النافذة العريضة المطلة على قمم المبانى فى الشوارع المحيطة يغلفها ذلك الضباب الترابى الكالح.. وخط النيل يبدو كما كان دائما.. رازحا تحت ثقل مجهول.. يغيب فوزى بناظريه عبر النافذه وقد تقطب جبينه فبدا اكبر سنا مما هو بسنوات عديدة.. ثم استدار اليهم بوجه مرهق ونظرة كابية:

ــ اطبعوا ! بالصور كما هى ..

كان يعرف انه رغما عنه قد خسر الرمادى الى الابد.. وقد قرأ له فى الهاتف المانشيتات.. وأستمع الى سبابه ولعناته وتهديده بأنه سينسفه وينسف معه الصحيفة بأكملها ان هو سمح بنشر صورة الفتاة!

«حاولت ياباشا ان امنع الصورة.. لكن الشفقى معه موافقة كتابية من حفيدتك على نشر صورتها واسمها بالكامل فكيف لى وأنا من

أنا فى عالم الصحافة فى البلد اتورط فى خطأ مهنى جسيم وامنع الصورة التى توثق التحقيق وتجعل منه تلك القنبلة؟»

سبه الرمادى بلفظ مقذع تناول امه فاضطره الى الرد.. انهارت الدنيا واطبق الطوفان والولد المأفون يوسف يختال منتشيا كالطاووس! .. حسنا .. لن تهنأ بما فعلت يابن الشفقى! تظن انك تحتمى بما سجلته على الشريط .. سوف ترى.. ومع ذلك..»

لايملك الشماع نفسه من اعجاب دفين بالولد..«لو افلت بها فسيكون صحفياً له شأنه..» رمقه بنظره يتجاور فيها الغضب والاشفاق.. ثم وقع له على إذن بمكافأة استثنائية مجزية!... وعند محطة «السوبر جيت» ودعه عمرو .. كان عابساً..

ــ لعلك لم تزح الحجر عن حجور الافاعى يايوسف!

ــ أرجو ان اكون قد فعلت ياصاحبى! أيحزنك ذلك؟..

ــ تعلم أننى احبك! وصديقك من صدقك.. سأخاطر بظن قد يخالجك ويصورنى لديك حاسدا او شانئا.. وأقول لك أنك ترقص الآن على كف عفريت أخرجته من القمقم.. تظن انك حققت نصراً صحفياً مؤزراً يضعك فى مقدمة الكبار.. ربما.. ولكنى أخشى ان لايطول عمر الانتصار.. الرمادى واضرابه ياشفقي ليسوا من عوام المجرمين وليسوا مجرد أسرة نافذة الجاه قوية السلطة والنفوذ.. انهم «الوقت» و«النظام» و«القانون» .. مثلث قوة لايضاهيه منافس.. فاحذر لنفسك ولكل ضالع معك!

.. الحافلة السريعة تنهب المساحة السوداء وبداخلها يعرض على «الفيديو» فيلم يمتلئ بمشاهد الضرب ومعارك العصابات.. أراح

يوسف رأسه لظهر المقعد وحاول ان ينام .. تذكر اخر ماجرى من حوار بينه وبين الشماع..

ــ أريد ان اتابع الحملة!

ابتسم الرجل القديم تلك الابتسامة التى تسفر عن اسنان صناعية منتظمة شديدة البياض وحدجه بنظرية عابثة كأنها صفعة مزاح.. بل خيل ليوسف ساعتها انه يرقص له حاجبيه:

ــ اذا تركوك تكتب فسوف انشر!

.. من هم ياشماع؟ .. من هم ياعمرو؟ .. أحقا لاتعرفهم يابن الشفقى؟.. انهم «الوقت» و«النظام» .. «القانون».

أى سر فى التحديد الثلاثى؟ .. الحرية .. الاخاء والمساواة! .. الحق .. والخير.. والجمال .. الله الوطن.. الملك! الاتحاد.. والنظام .. والعمل! .. حرية واشتراكية ووحدة .. الوقت .. والنظام والقانون! أكان الرقم المقدس ثلاثة؟ .. وكان الشكل المقدس هو المثلث؟.. والمثلث هو الهرم! وكان قبل الهرم اوزريس .. وايزيس.. وحورس..

العدل يا وزير العظيم ياصاحب منصبة القضاء! هؤلاء اولادك ينتظرون حكمك لتكون فى الأرض حياة.. فأقم محكمتك وانصب ميزانك!

هرب الاسباط بكتاب الموتى.. ولكنه سقط منهم فى لجة «حابى» فقادهم كاهن آتون الهارب من تل العمارنة بألواح الشمس ليصنع لهم الشريعة! تهويمات الغروب تجسد لك احلام القيلولة يايوسف .. حيث تمثلت آخر تجليات ذهنك المكدود فى ترنيمات الشمامسة..

المجد لمريم.. ويسوع.. والاب رأس الثالوث . وفى الكمان البشرى المعزوف على حنجرة الشيخ رفعت فى مغربية رمضان «انا رسول ربك اليك لأهبك غلاماً زكياً.. قالت» .. و ... ينطلق مدفع الافطار..

تنطفى الشمس فى الملاحات. وتتكسر الغفوة فى أجفان يوسف .. ويسرى خدر يشوبه الالم فى ساقيه وعضديه .. آثار ليلتين كاملتين بلا نوم..

.. سمع بوق السيارة قبل ان يضع نفسه فى التاكسى.. والتفت ليجد رحاب فى سيارتها تشير له مستدعية.. (من اخبرها بقدومه؟)

ـ رفيق قلب عليك الدنيا .. وحين توصل اخيرا لزميلك عمرو فى ندقك بالقاهرة اخبره أنك ستصل فى حافلة السابعة والنصف.. قد ارسلنى اليك لاخذك الى كبينة المنتره..

ـ ولماذا لم يأت هو ؟

ـ ربما كنت فى رأيه من تستطيع اقناعك بالانصات اليه!

.. عيناك يايوسف حمراوان بلون الدم .. وهالات السواد حولهما.. الشحوب يصبغ اديم وجهك .. ماذا بك؟.. يقول رفيق انك رتكبت اكبر حماقة فى حياتك.. اراني ذلك التحقيق المنشور بإسمك عن حادثة مارينا!.. ويبدو الامر خطرا.. سمعت منه ومن ابى الكثير عن جبروت آل الرمادى! حبيبى .. لااريد ان يصيبك مكروه»

.. النصف الاخير من ايلول فى الاسكندرية!.. وطريق الكورنيش قد خلا منذ ليال الا من اسراب كطيور المساء.. تنزلق على حافة

فـريق يعطره الشـجـن.. ورائحـة اليـود المشـبع بملوحـة الاسـمـاك الطازجة تتـماوج فى دفـقات النسـمات المتسـارعة تثير تحت اردية المواسم المختلطة نوعا من «برودة» خـاصة تلسع بلا قسوة.. وداخل حدائق القـصر طلب منهـا ان تتوقف بالسيـارة فى منعطف الربوة.. وحين فـعلت.. همس يرجوها.. دعـينى اغفـو على صدرك دقـائق مـعدودة.. وأحتـوته بزراعيـهـا.. تريح رأسه علـى نهديهـا.. وأتاه صـوت عبـدالوهاب من زمن لـم يشـهده «عند مـجرى العـبيـر من نهديك» .. والعبير مسكر .. وطرف اناملها يلامس شفتيه فيتمتم .. أحبك .. وتـغـرورق عـيناه.. ويـذكـر نزار «خـبـأت رأسى عنده وكـأننى» ينام الطفل فيـه .. وتصـحوا الامـومة فـيهـا.. وتحل ازرار قمـيصهـا.. تنحى حمـالة النهد .. تخرج الكرة البـيضـاء والمكبتنزة وتسلمها لشفتيه..

.. حين ولدته الحاجة جازية لم يحن له ثدياها.. دخل عليها واحد من اشقاء زوجها «فكبسـهـا» وانحبس اللبن فى ضرعها.. لم يذق منه يوسف الا حلى قطرة واحدة.. وارضعتـه خالته «رئيسة» على ابنتها «شوق» .. رضعات مشبعات كثيرة فحرمت عليه.. وأورثته تلك الحسـرة التى تساورت كلمـا لقى شوق ورأى قوامـهـا الذى خرطـه خراط البنات فـأبدع تكوينه.. قبلهـا مرة عـابثا فـهمـست .«ليـتك مت جـوعا ولم تؤاخنى فـى الرضاع» .. فلم يـنفرد بهـا بعدها.

الدائرة خط منحنى

يحرق رفـيق سيجـارته العاشرة خـلال الساعة الاولى التى قـضاها يسب ويلعن «أبوخاش» ابن الشفـقى الاحمق الذى يجرى بالمشوار نحو الدمـار.. وحين توخلت رحاب ثـار وطلب منها ان تتـركه مع صديقه و«تغور» فى ستين داهيـة.. فردت له الصاع صاعين وقبلت يوسف امامه فى شفتيه.. ثم انصرفت.

اعرف انها تنام معك فلست اعمى ولم أك يوما ساذجا.. ولكن هذا حـسـاب اخر ابقـيـه لما بعـد.. المهم الآن هو اسـتـدراك الخطأ ومنع الكارثة! اتعرف ماهى مشكلتى معك؟ .. أننى احبك واعتبرك اخى الذى لم تلده امى.. احـمل نفـسى مـسـئوليـتك رغـمـا عن ارادتى وارادتك.. لذا أريـد ان انقـذك! فـلتــخلع ثوب البـطولة الزائفــة والاكـفنوك به .. ولتـنتـبـه الى الحـقـائق الصلبــة التى تحـيط بك! باختصار يابن الشفـقى.. لست ندا لهؤلاء الغيلان الذين لن يتوانوا عن ذبحك فى الصباح وسلقك فى الظهيره والتهامك على العشاء! نعم.. لن يستـغرق الخلاص من صداعك لديهم اكثـر من يوم! لقد لطمت صدغى كالنساء حين قرأت الصـحيفة.. وتبولت فى لباسى حين سمعت صوت حسين الرمادى فى التليفون.. مشحونا بالوعيد والبغضـاء ولايدع املا باقيا فى حياتك.. هم يمهلونك حـتى موعد صدور العدد الجـديد فى الاسبوع القادم كما وعـدت قراءك .. فإذا خلا من المقال الموعود .. وامتنـعـت عن تسليم الشريط المسجلة عليه اقوال هالة الرمادى للشـرطة والنيابة .. فقد اشتـريت عمرك.. ليس هذا فقط.. فهناك وعد اضمنه انا بتعـويضك عن خبطتك الصحفية التى لم تكتمل بصحـيفة اخرى تملكها من بابها.. وتكون صـاحبها وناشـرها ورئيس تحريرهـا وتأتيك منها حـصيلة اعلانات تجـعلك

مليونيرا خلال عـامين او ثلاث.. هل تسمعنى يايوسف؟ مالك؟ .. يخرب بيتك .. هل نمت؟
.. كلا .. لم يـنم يوسف .. استـسلم فقط لطنين النحل فى أذنـيه.. تحول كل كـلام رفيق الجوينى الى طنين .. رغم انه فهم واسـتوعب كل تفاصيل العرض.
من لى بتلك الـبدوية الـعرافـة التى قـرأت كف الـفتى الحـنطى ليلة اختناق القمـر؟ .. اريد من تخترق عـيناه استـار الظلمة وحـجب الغـيب لترى عنـى ايامى الآتية.. اريد من يجـيب لى على السـؤال اللغز: اكانت خسفة القمر ليلتها بشيرا ام نذيرا؟.. لعلها كانت نذير موت للفتى الصريع.. فهل حـملت نفس النبوءة لكل من شهدها؟ ام ترى الفـتى كان القـربان والاضحيـة يفك دمه ليـعمـد البشـرى للمـجدودين.. وانت اولهـم؟.. فأنت من أحـال دماء زين ودمـوع هالة الى سطور ترصف طريقك الى الذرى»
.. فى شرفـة «الكبينة» المطلة علـى البحر تركـه رفيق بعـد ان وعده بالتفكيـر فى الامر! وكان قد قـرر الا يعود الليلة الى منزل الداير .. يريد ان يبقى وحده .. ليفكر..
تناول هاتفه المحمول .. وطلب الـرجل الرقيق.. وحين رد عليه كان يصدح كعصفور تيقظ فى الربيع..
ـ لم يخذلنى حسن الظن بك يايوسف! كنت اعرف انك ستـفعل .. انت البطل الحقيـقى.. فقد اطبقت كفيك على الجـمر.. وتقدمت الى الجحيم غير هياب.. احبك!
.. صوت المتوسط يهدر .. وتسطخب امواجه .. وينشق صدره عن

اطياف تخرج لترقص تحت سنا القمـر البدر.. ويتقدم من بينها زين العابدين امام.. مازال الفتى الحنطى يبتسم رغم مامر به من اهوال.. ورغم قطرات الدم التى تتسـاقط من موضع الضربة التى صـرعته.. ينفض عن نفسه اعشاب الاعماق الطحلبية .. ويجلس فى الجوار.. ويسـأل عن هالـة! يضع يوسف الشـريط فى المســجل ويسـمعـه صوتهـا.. تنسال دموعه ولكنه لايفـرط فى ابتسامـته.. لم تكن هالة تـتحدث كـما تحـدثت من قـبل.. كانت تغـنى (يتحـول الكلام فى حضرة المحبين الى غناء.. الى تراتيل)
ويلفت زين نظره الى كـروان يمرق صـادحا.. وعندليب على سـور الشرفة يغـرد .. وقبرة تشدو فى حضن عش قريب.. امـا البلبل فقد استـقر فى حـوض الزهور التى غرسـت اشواكهـا فى قلبه لـترتوى وتستنبت بنس الورد الاحمر».
.. ويقول الفتى الحنطى الذى اكتست حلته بلون فجر ليلكى..
ــ الموت حديقة تسكنها الاطيار .. الموت جميل!
أيقظه رنين الهاتف فى الصباح .. (الشرطة تبحث عنك يايوسف .. وتنبه عليك بالمثول امام النيابة اليوم فى الواحدة)
.. نفس الرجل محـقق يبدو وكـأنه يكره الصحافـة والصحـفيين .. يشرع الجريدة امامه ويهتف
ساخراً «السنا اولى بصيدك الثمين ياسيد يوسف؟»
ــ هى مهنتى أحاول ان اتقنها ..
ــ لماذا لاتتقنها وتساعدنا على تحقيق العدالة فى نفس الوقت؟
ــ لا ادرى كيف !..

ــ الشريط المسجل بحوذتك احـد الادلة التى يشكل اخفاؤها جريمة .. وعليك ان تسلمه!
ــ الشريط توثيـق لتحقـيقى الصحـفى ووجوده بحوذتى ضـمان لا استطيع التـخلى عنه .. ولكن توجد منه نسخة لدى رئيـس التحرير يمكنكم ان تأمروه بتسليمها..
كان المحـقق يرمته ساخطـا.. «انت من اجرى الحوار معـها.. وانت من نأمره!»
وحين رفض باصرار امهله لـثمانى واربعين ساعة يوجـه اليه الاتهام بعدها بعرقلة سيـر العدالة واخفاء الادلة وتوعده بأنه سيسـعد كثيرا بالامر بحبسه على ذمة التحقيق!
وفى الخـــارج كـــان الثـــلاثة بـانتظاره.. رفـــيق .. ورحـــاب .. وهـــانى..
وقف هانى على الضفـة الاخرى عاقـد الحاجبين متـجهمـا .. بينما ضربه رفيق بقبضته فى ذراعه محبذا..
فعلت الصواب ..
ــ لم يكن هدفى ماتظن .. وسأواصل النشرة
ولدهشته ضحك رفيق ساخرا وهو يهتف .. سترى غدا!
ماذا ارى فى الغد؟ وماذا يعرف رفيق غير ما اعرفه؟ .. وهمست له رحاب .. طوال الليل لم تنقطع المكالمات»
... أحس بثـقل يـرسب فى أمـعـائه!.. وتسـاؤل مــعلق فى فـراغ الإحساس عن علاقة رفيق الجوينى بكل ما يحدث... (أحقاً يقتصر الأمـر على دور الصديق المتلهف على حمـاية صـديقه؟... ومـاذا

يكون غـيـــر هذا؟.. اللعنة تمسـك بخناقك وعـقـــارب الوســاوس تزحف..)
عبر الشارع إلى هانى .. الذى كان حزينا أكثر منه غاضبا..
ــ لا تسىء فـهمى انت الأخر! لقـد رفضت تسليم الشـريط تمسكا بمبدأ مهنى ولا علاقة للأمر بأى مساومة مع الرمادى!
ــ لا أعرف عم تتحدث... وليس هذا ما يحزننى..
ــ فلنمض معاً إلى حيث يمكننا الكلام!..
.. وبحر النهار لا يمكن أن يكون هو نفـسه بحر الليل... وكلام النهار لا يهمس .... وأشجـان الليل تهدهد آلامها على وسـائد من أمل فى صـبـاح آت.. أمـا ١٩٠أحـزان النهـار فـيكشـفـهـا الخـوف من ظلمة الأرق والعـجز والوحدة.. وأكثـر ما راعه ان يرى الدموع تترقرق دون ان تنفـرط فى هاتين العينين المشرعتين تحت حـــاجـــبين شـــقـــراوين (للمـــرة الاولى يلاحـظ لون الشعـــر...)
ــ ماذا بك يادكتور؟
ــ تعرف أن الجـامعـة قد فـتحت أبوابها.. والدراسـة بدأت فى كل الكليات..
ــ أعرف .. وهذا ما يحدث كل عام.
ــ لكنى لم أذهب فى أى عـام مضى لأبدأ العـمل فوجـدت نفسى موقوفا!..
.... موقوف؟..
رددها يوسف بلهـجة من لم يفهـم ورنة فى صوته تستـتفـه الامر..

لكن هانى يحملق فى امتداد الأزرق البعيد دون ان يلتفت إليه.. وربما كان يخشى أن يحرك عينيه فتنفرط غلاله الدمع..

ــ اليوم كان موعد انعقاد مجلس القسم لتحديد المنهج للفرق الاربع.. طلب منى رئيس القسم وعيناه تبرقان بومضات متشفية ان التقى أولاً بالعميد.. «لى معهم تاريخ حافل منذ عدت من اميركا والتحقت بالعمل معهم.. احنقهم واثارهم التفاف الطلبة حولى وشعبيتى التى تعدت الآداب الى باقى كليات الجامعة.. اتهمونى مرة بأننى اعطى دروساً خصوصية.. ومرة بأننى ابيع الامتحانات.. وحين فشلت محاولاتهم حاولوا استقطابى وجرى الى مستنقع الفساد الذى يجمعهم

.. كنت وحدى مع ثلاثة من المدرسين والمعيدين زين من بينهم نخوض حرباً شرسة معهم.

.. صمت هانى طويلا.. ولم يستحثه يوسف.. أحس ان الرجل يتأهب لسرد اسوأ مافى الأمر.

.. وجاء صوته.. مكتوماً.. مرتجفاً.. كأزيز مياه تغلى فوق الموقد..

ــ ذهبت لمقابلة العميد.. واجهنى بشكوى مكتوبة حررها اربعة طلاب.. يتهموننى..

اطلق زفرة حارقة قبل ان يكمل: يتهموننى بأننى شاذ.. وبأننى أراودهم عن انفسهم واحرضهم على الفساد!!

الفصل الثانى عشر



دائرة من فولاذ بارد

ماذا افعل يا صديقى؟ .. هتف هانى وهو يشيح بوجهه وقد تورد بياض عينيه تحت غلالة من دمع يترقرق ولا ينفرط! .. وقبل ان يفيق يوسف من هول ما اخبر به ليفكر فى جواب على سؤال الرجل كان هذا قد انفلت مبتعدا يكاد يجرى ..

فى منزل صوفى لم تساوره الرغبة .. جلس فقط امام رحاب وقد التصقت ركبتاه بركبتيها وامسك بيديها فى يديه .. وحكى لها ما قاله الرجل الرقيق!

... عبست ودكنت نظرتها واتى صوتها بعيدا .. غريبا..

– وهل ينكر؟ ..

– من ينكر ماذا؟

– صاحبك .. هل ينكر التهمة ام يخشى الفضيحة؟

لم يثر عليها طوال سنى علاقته بها .. فكانت تلك هى المرة الاولى .. «كيف تجرؤين على مجرد السؤال؟ .. كيف تضمنين نبرة صوتك هذا الشك المقيت؟».

انتفض مبتعدا عنها فهبت تستوقفه وتقسم له انها لم تقصد ما فهمه

.. ولكن مزاجه كان قد تعكر بلا امل فى تدراك ما اندفع اليه ..
تركها ولم يلتفت لنداءاتها التى لاحقته على الدرج .. وحين لفحت وجهه تلك الريح الباردة التى تصفر فى ذلك الشارع الصغير المتعامد على طريق الكورنيش وشارع الترام سرت لها فى جسده قشعريرة انذرته باقتراب النوه، اما السحب النحاسية التى حجبت مغرب الشمس فقد بدت قريبة توشك على السقوط .. وفى احشائه آلمه تقلص مباغت .. «هذه الليلة فى الاسكندرية لا تبدو على ما يرام.. وربما كان من الافضل ان يهجع مبكرا فى منزل الداير..».

على باب الشارع عند «القمة» لقيه على الاحسن .. وبدا الامر مفاجأة تحمل فى ثناياها شرا مستطيرا .. تسمر امامه هاتفا ..

- على! ما الذى رماك على الداير؟ .. الحاجة جازية؟

- امك بخير يا يوسف! .. انه حسن الغريب .. الشرطة القت القبض عليه منذ ساعة .. فتشوا غرفته فى البيت فوجدوا «تربتين» حشيش تحت مرتبة السرير!

يا ولاد الحرام.. حسن الغريب حشاش اى نعم.. كذلك سيد المرسى .. وكل رجال العائلة والشارع والحى .. والبلد بأسرها لكن تربتين؟ حسن لا يتاجر فى الصنف وعمره ما حمل من البضاعة اكثر من قرش أو قرشين بكثيره أوقية.

.. استغاث برفيق الجوينى الذى احضر محاميه وصحبهم الى الكراكون.

جاءوا بالغريب مكبل اليدين ..

- ما الذى حدث يا حسن؟

- اخبرنى انت يا بن والدى .. فأنا لا اعرف.. ورغم اننى «حشاش» قرارى كما تعرف إلا ان عينى لم تجتليا بمرأى هذه الكمية مرة واحدة .. ولا اظن مقدار ما عمرت به نافوخى طوال عمرى يصل الى تربتين بحالهم.. لكن امرا غريبا قد حدث .. فى صندوق سيارة الشرطة الذى رمونى فيه بعد القبض علىّ ركب الى جوارى ذلك المخبر الغليظ ولكزنى فى جنبى وهمس فى اذنى: خللى زين العابدين ينفعك .. من يطلع زين العابدين هذا .. لا اعرف..

اطبق الليل على منزل آل الشفقى فى داير البحر .. يلفه السكون ويرين عليه حزن ذاهل لا يصدق .. الحاجة جازية نامت ودموعها على خدها بعد ان حقنها الطبيب بمسكن .. وباطة على كنبتها الاستامبولى تنهنه بغير انقطاع وتتمخط وقد ربطت رأسها بمنديل الصداع.. (منديل له خشبتان فى طرفيه اعطته لها امرأة من بدو العجمى) .. وراما تجوب ارجاء المنزل بلا هدف وكأنها تبحث عن شىء مفقود .. اما سيد المرسى وعلى الاحسن فقد انهمكا مع اهل الداير الساهرين على مقهى «الزلبانى» يتجادلون فى الخية التى نصبت بخبث ابليسى ليقع فيها حسن الغريب.

وفى حجرة الجلوس جلس يوسف فى مواجهة رفيق ..

- انت تعرف الغريب احسن منى يابن الجوينى هل يكذب؟

هز رفيق رأسه نافيا بقوة .. «الحشيش مدسوس عليه» .. والكلام الذى قاله له المخبر لا يعنى إلا احتمالاً وحيداً .. وانت تعرفه.

- وانت ايضا تعـرفه يا بن الشفقى .. ولطالما حـذرت .. هل قرأت صحيفـة الغد؟ .. ابى كان فى القاهرة واتى بها مـعه .. النائب العام امـر بحظر النشـر فى قـضـية مـصـرع زين العـابدين امـام .. يعنى حضرتك لن تستطيع مواصلة الكتابة .. مبروك.

- هذا اذاً ما كنت تعنيه فى الصبـاح بعد خروجى من مكتب النيابة .. ما الذى تعرفه على وجه التحـديد يا رفيق؟ ما هو دورك الحقيقى فى المسألة كلها؟ .. اعرف ان مصالحك ومصالح ابوك التجارية هنا فى الاسكندرية كلها من بطن الرمادى .. واعرف ان ارواحكم بيده .. ولا حول لكـم ولا قوة اذا تخلى عنكم أو غـضب عليكم .. وانا افهم هذا واستطيع ان التمس لكم فيه عذرا .. فقط اريد الحقيقة.

مرت سـحابة ثـقيلة على وجـه رفيق .. وبدا كـمن يرزح تحت ثقل باهظ..

- اى حقيقـة يا يوسف يا شفقى؟ الحقيقة مـاثلة امامك تكاد تخزق عـين الابعد منذ اللحظة الاولـى.. ولقد نبـهتك وحـذرتك ولكنك كنت تراهن علـى سراب احـمق.. من تـكون لتناصب آل الرمـادى العداء وتحاول ان تحـقق شهرتك كصحـفى على حسابهم؟ ها انت ترى ما سوف تجنى!

.. ظل يوسف صامتـا يسائل نفسه «أحـقا هذا هو رفيق؟ .. اذاً لحق على الارض الخراب! ولحق عليك الخسران المبين .. ولكن .. فلتبق الحـسرة داخلك الى حـين .. ولتـؤجل الحسـاب والعـتب .. ولتلق جانبا بأى توق لمعرفة الدور الذى يلعـبه رفيق.. والتساؤل عن مدى تورطه فى قصد الخيانة .. الآن لا يهم إلا مصير حسن الغريب.

- فلأكن كما تقول يا رفيق .. ولكن حسن الغريب .. ألا يعنى لك شيئا ؟

اطرق رفيق مبتئسا .. وراح يزفر ويضرب فخذيه بكفيه ..

- مـاذا باسـتطاعـتى يا بن الشـفقـى؟ .. اخبـرنى .. المخـدرات تم تحريزها والمحضر قد تحرر وحسن سيرسل الى النيابة فى الغد!..

- باستطاعتكم كل شىء يا رفيق!..

- تتحدث بضـمير الجمع عن من يا يوسف؟ .. أتـعدنى واحدا من رجـال الرمادى؟ .. ربما كنت أتـعامل مـعه وربما كـمـا قلت ترتبط مصالحنا به .. وربما كنت اريد ان أتقرب اليه بالضغط عليك ولكنى لست متآمرا يا بن الحاجة جازية!!

... فى حـجرة البـرج على الفراش .. كـانت البرودة لاذعـة .. ولم يجد بنفـسه قدرة على النهوض ليـغلق النافذة .. بل لعله استـعذب وخزات الليل الخريفى الزاحف ..

لماذا لم تخرج باطة اغطيـة الشتاء؟ الشـتاء مازال بعـيدا .. والطقس يراوغ .. هناك ايام حارة كثيرة يحملها تشـرين .. سبتمبر ينتهى غدا .. قل ايلول .. مـذا يكون ايلول .. اهو اله .. ربما كان اشـتقـاقا من ايل .. اله المنطقة الواقـعة فى الغرب الآسـيوى .. ايل .. و .. ول .. فتكون ايلول .. لكن النطق الحرفى لا يستقيم .. أو لعلها من «بعل» الاله الاخر المـنافس .. فتكون بعلول ثم حـرفت .. بعلول .. بهلول .. ماذا تقول يا يوسف؟ الايل .. والبعل .. ديهوه .. الهة الكنعانيين والفـينيقـيـين والعبـرانيـين .. تهويمـاتك تحـملك على جناح طائر مخمور .. تـريد ان تتشاغل عن خيبتك الثـقيلة .. ترتع فى فراشك

واخوك الاكبر ملقى على ارض التخشيبة فى الكراكون .. رباه .. صـــوت مـن هذا؟ .. هانـى يناديـك .. هانى يـقف علـى ســـور الكورنـيش عند مـرسى الانـفـوشى وينادى .. يا زيـن .. أيا زين العـابدين .. يا ورد مفـتح جوه الـبسـاتين .. والورد كان شـوك من عرق البنى فتح ..

خط تحت الأستواء

ساحة كليـة الاداب فى منطقة الازاريطة تموج بالطلاب .. عـاودته ذكريات السنوات الاربع .. احلى سنوات العمر .. هنا كانت توافيه رحاب قادمة من كلية التجارة .. وهنا تشاجرت مع ليلى زميلة حين فاجـأتهما يضـحكان.. وفى هذا الممر اخـتبأ بعـد هطول امطار نوة الكرم وقد ابتلا وغلبته النزوة ليقبل خدها ويرشف قطرات المطر من عليه.

سـأل من صادفـه عن مكتب الدكـتـور هانى .. تهـامس الطلاب .. وتبادلت طالبتان اشـارات غامضة يعلوها ابتسام مـاكر .. ثم تفرقوا جميعا ليتجمعوا عند حائط بعيد ينظرون نحوه وهو يتجه نحو غرفة فى قسم اللغة الانجليزية حيث جلس هانى وحده..

- ما الذى اتى بك؟

كان صوته مفعما بعدوانية مرتجفة..

- اريد ان اطمئن عليك.

- لا تكذب. اعـرف انك تريد ان تجعل من الشكوى المجـرمة مـادة لتحقـيق صحفى .. حسنا .. سأملى عليك مـا اريد قوله.. ما رأيك فى مانشيت بعـرض الصفحة يقـول «أستاذ الجامعـة المتهم بالشذوذ

يقسم انه رجل»؟.. لم يكن بالحجرة غيرهما .. ومع ذلك طلب منه يوسف ان يتمالك نفسه.

- أتعرف ان نانسى قـالت لصديقاتهـا وكل معارفـها انها فـسخت خطبتها لى بعد ان اكتشفت شذوذى؟

وهل تصـدق انها لم تكـتف بذلك وطلبت ان تشهـد فى التـحقـيق الذى تجريه الكلية حول شكاوى الطلبة الاربعة؟

عـينا الرجل تبـرزان من محـجـريهـما بين هالتـين سـوداويين، وتلقيان بظل مخضر على وجنتين شاحبتين ترتجف فى احداهما عضلة تبـدو وكأنها وريد ينـبض بسرعة رفـة العين .. وازرقت عند عارضيـه شعيرات دموية دقـيقة .. فى لحظة كانبثـاقة البرق حيث تضـاء الدنيا بلا سـبب بالنور المبهـر .. رأى يوسف رأس هانى كجمجمة مجردة مثقـوبة فأغمض عينيه ليهاجمه الصداع القديـم .. ويتبقع السواد بالاشكال البيـضاء غير المتسقة .. وأتى اليه صـوت الرجل يهدد ممزقـا كصفـير مرجل توشك مـياهه ان تتبخر.

- اخبـرنى بالله عليك مـاذا اقول؟ كـيف انفى تهمـة كهـذه؟ كيف اثبت لهؤلاء الوحوش الذين يتلمظون ويسيل اللعاب من اشداقهم فى انتظار وليـمة يأكلون فيـها لحمى .. كـيف اثبت لهم اننى لست شاذا؟ هل اخطب فيهم؟ هل اقسم على كتاب الله؟ .. لماذا تغمض عينيك دونى وكأنك تكره ان ترانى؟ أتصدقهم يا يوسف؟

- افتح عينيك الملعونتين وانظر فى وجهى!..

كـانت لهجتـه صارخـة باكيـة تشى بانهـيـار وشيك .. وبرد فـعل

منعكس فتح يوسف عينيه وانتقل صداعه من الاحساس المباشر الى مكان ما ينتظر فيه متربصا.

- هل بدا لك منى ما يثير لديك شكا؟

- لا تفعل هذا بنفسك يا دكتور ألا تلاحظ انك تسير بقدميك داخل ارضهم الملغومة وتوشك ان تقع فى شراكهم؟ وانك تفتح مسارب وعيك لشك سيهاجمك انت نفسك؟.. تريد ان تجن يا رجل؟

انهار الرجل واقعاً على ركبتيه.. واستسلم لنشيج عصبى اهتز له يوسف وانخلع قلبه .. وكاد يبكى بدوره حين سمع الضجة فى الخارج .. وداهمه احساس بخوف غير مبرر .. فهرع ليستطلع ما يحدث .. كان الممر الذى يقع فيه مكتب الدكتور هانى يكتظ بمجموعة من الطلاب .. يقودهم ثلاثة من الشبان الذين اطلقوا لحاهم مثلما يفعل اعضاء الجماعات الاصولية المغرقة فى تزمتها.

لافتات مكتوبة بخطوط غليظة على اوراق البريستول التى تستخدم عادة لمجلات الحائط «اطردوا المأبون» .. «لا مكان للشواذ فى دار العلم».

من الطرف المقابل مجموعة اخرى اقل .. بدا واضحا رفض افرادها لما يحدث .. المجموعتان تتشابكان ويظهر حرس الكلية فى ثوان ليحيطوا بالجميع .. ويخفر بعض مكتب هانى الذى منع من مغادرته.. حاول يوسف ان يعود الى مكتب الرجل الرقيق.. لكن الضابط منعه واصر على منعه حتى بعد ان اطلعه على بطاقته الصحفية..

.. احس يوسف بأصابع الثلج تنشب اظافرها فى عنقه .. وبكل

المرئيات فى الشوارع التى راح يطوف بها على غير هدى تتشح بألوان خريفية كابية .. الشمس فقدت وهجها واصفرت .. والبحر كحلت زرقته وتحولت الى لون الرماد وهامات الاشجار فى مقبرة الشاطبى القديم تعرت من خضرتها الداكنة والقت بأوراقها على السور الابيض..

«اخشى ان اكرهك يا اسكندرية.. لم أعهدك ابدا بهذه القسوة.. ماذا جرى لك يا رحبة الصدر والاحضان .. يا مقصد الخائفين ومأمن المطرودين .. انت يا دفء النفوس المقدورة وزاد الجوعى والمحرومين .. هل اصابتك لعنة المدن الحجرية فتحولت الى مثوى للاصنام ومتحف للاجساد المحنطة؟»

- تغمغم لمن يا يوسف؟

- احدث نفسى حتى لا اجن..

- ألا تملك شيئا غير الجنون؟

.... والجنون نعمة من نعم الحرية .. يحدث هذا حين تضيق عليك الارض بما رحبت ولا تجد سبيلا للخلاص فتلجأ الى حيث لا تجد الاسئلة ولا تبحث عن اجابات .. تلك المساحات من العته الساكن البليد .. ترتادها فلا تنكرك بل تعطيك وطنا .. وكسرة خبز .. وكأس شراب.

دائرة الطباشير الوهمية

لم يتصور ان يرد عليه فوزى الشماع بهذه السهولة .. وأقلقه أن يجىء صوته جذلانا مبتهجا.. «ألديك تغطية لحكاية الرجل الشاذ؟..»

- انها مؤامرة دنسة يا سيدى .. وسأكتب تحقيقا يكشف ابعادها وارسله اليك.
- هل يحوى التحقيق اشارة الى قضية المخدرات المتهم فيها اخوك الاكبر؟
الصوت هذه المرة يرتجف بلذة تشف عارمة.. واستطرد دون ان يدفع للفتى فرصة الرد..
- اذهب بالمرة الى والد محبوبك قتيل مارينا واعرف منه حقيقة ما نشر اليوم عن اقراره بأن ابنه قد ابلغه بالهاتف من مارينا ليلة الحادث انه سينتحر .. وانه لا يتهم آل الرمادى بشيء..
- ضغطوا عليه بالخوف أم أغروه بالمال؟
- كف عن التفلسف .. ولا تناقش خبرا تأكدنا من صدقه .. وافعل كما آمرك..
- سيادة رئيس التحرير .. «.... أمك»!
ساد الصمت للحظات قبل ان يسمع صوت الشماع مرة اخرى ..
- انت مفصول .. وبلا رجعة هذه المرة...
جلس مكانه وظل يضحك .. ورفيق يرقبه عابسا ..
- اختك باطة واخوك على اتصلا بالهاتف يسألاننى عنك .. يقولان ان الشرطة تبحث عنك ..
... امسك بيد رحاب فاستكانت بين اصابعه .. رخصة .. باردة...
- يدك باردة ..
- قلبى دافئ ..

ثار رفيق : «ألم تبق ذرة حياء لدى احدكما؟ ماذا اكون فى ناظريكما لتتبادلا الغزل أمامى هكذا؟ ناقص ان تخلعا ثيابكما وتتضاجعان وانا أتفرج.. لعلى قواد .. ولعل بيت الجوينى قد صار «خبيزة» .. اذهب لحال سبيلك الآن يا بن الشفقى .. فلا اريد ان تنتهى صداقتنا فى الكراكون .. اقسم برأس ابى لئن لم تختف من ناظرى الآن لاضربنك حتى تقطع النفس.
... الحلقة تضيق يا يوسف.. فإلى اين تأخذك قدماك؟ الى داير البحر؟ ام غبريال .. ام لوران
... فى داير البحر لقيه على الاحسن ونصحه بأن يذهب طواعية الى الشرطة فزبانية الجحيم يتقاطرون على مصالح الاسرة .. اغلق محل المانيفاتورة اداريا لاسباب مضحكة واصطحبوا سيد المرسى الى حيث يستجوبونه عن اقتناء اسلحة خطرة بدون ترخيص.. حرزوا مقص القماش يا يوسف .. ومطواة قرن غزال قديمة .. وهجموا على محل التحف والانتيكات عندى وصادروا بضائع لا تقدر بثمن بحجة انها اثار مسروقة ونبهوا علىّ بالمثول امام النيابة فى الغد .. وضابط الحملة همس فى اذنى بأن كل شيء سينتهى على خير اذا جاء تليفون «معين» من القاهرة .. ويوسف الشفقى وجده هو الذى يمكنه ان يجعل الجرس يدق.. فى مكتب الباشا مدير الامن .. ماذا فعلت بهم يا بن ابى؟ كأنك حشرت «قرن شطة» فى مؤخرة كبير منهم.. ادركنا يا احلى ولا تدع الامور تنحدر الى ما هو اسوأ.
... فى غبريال كان الباب مغلقا ولا احد يرد من داخل المسكن .. قالت له البائعة التى ترابط بفرشتها امام المنزل.. ان «باشوات» من

«القاهـرة» جاءوا بسيـارتين فارهتـين .. واصطحبـوا امام وزوجـته الثكلى والابنة .. ورحلوا.
- ترك مفـتاحه عند رضـوان البقال امانة تـتسلمها اخـته المقيـمة فى ادكـو حـال حـضـورها .. واخـبـره انهم لا يـطيـقـون البـقـاء فى الاسكندرية بعد المرحوم .. وان ربنا كتب لهم الاستقرار بعيدا على امل الصبر والسلوان.
... الصخرة تنحدر من القمة لتسحق يا فارس المثل العليا وسادن العدل وخازن الحقيقة .. وانت وامـثالك مجرد حصى فى المنحدر كـيف امكنك ان توهم نفـسك ولو لـلحظة انك قـادر على وقف اندفاع الصخـرة بأن تضع قدمك انت الحصاة فى طريـقها؟ هاهى صحـيفتك التى افـردت صدرها لانتصـارك المؤزر تنشر فى نفس المكان صورة بعرضها للاب المكلوم .. يتـقبل عزاء رجل الاعمال والبـــر وراعى ثلاثة ارباع الانشطـة الفنيـة فـى البلد الوجــيـه .. عبـدالرحـمن الرمادى .. يتـعانقـان امام الكامـيرا وبالمانشـيتـات العريضـة يلهج عم امام بالثناء على مـروءة الرمادى الكبـير الذى آلمه وادمى قلـبـه ذلك الحــادث المؤسف الـذى وقع بالقـــرب من منتجعه الصيفى.
- ابنى زين رحمة الله عليه كان يعانى من متاعب نفسية فى العامين السـابقين نتـيـجة بعض المشـاكل التى نشـبت بينه وبين زمـلائه فى الكلية .. كان يحرضه على اثارة المشاكل استاذ يدعى هانى الكردى .. يشهد الله اننى لم اكن مرتاحا لعلاقته بولدى..
طوى يوسف الصحيفة ولم يستطع ان يتم قراءة الموضوع ..

... فى لوران لم يقترب من فيلا الكردى .. توجه الى بيت نانسى .. وقدم نفسه..
- انت صديقه؟
رشقته بنظرة حشدت فيهـا كل تحفزات العداء .. كأنها تنتظر مجرد كلمة تقترب من تخوم الفاجعة التى شبت حولها فى سرعة وجنون النار ..
- لم آت اليك صحفـيا .. ولا بصفتى صديقـاً لهانى .. جئت لأنى اخـتبلت بك منذ رأيتك تلك الـليلة فى شرفـة القنديل الاخضـر .. أتعـــرفـين انى حلـمت بك؟ نعم .. نمت مــعك فى حلم غـــريب صحـوت منه سعـيدا غـير نادم.. أدركت انـى اشتهـيتك كـأنثى .. وأحـســست فـيك بامـرأة خلقت من اجلـى .. لا تنظرى الى بهـذا الحذر..
رمقته بنظرة مرتاعة .. «مخبول انت مثله .. حقا .. تقع الطيور على اشكالهـا .. تأتى فى هذه الظروف لتراودنى عن نفـسى؟ .. ام تراها خدعة صحافية لتستدرجنى؟..
تهالك جالسا دون ان تدعوه .. ومد ساقـيه بطولهما حتى اصطدمتا بساقها التى تجاوره ..
- اجلسى..
لا يعـرف كيف اصـدر الامـر ولم يحسب كـيف تتلقـاه .. ترددت ولكنها لم تـثر ولم تطرده .. امسك بمعـصم يدها وجذبهـا نحوه .. وبسرعة آلية ركعت على ركبتيها ولمعت عيناها وافترت شفتاها عن انتظار

- تعرف انه لم يقبلنى مرة واحدة .. تعرف انه لم يلمس يدى. .ولم يلتصق بى .. كان مخنثا!

... والامسية غريبة حيث يكتنف الرماد كل المساحات .. وتتسلل لسعات ريح شتوية هاجمته ليلة خريفية بلا مبرر .. وحين كررت نانسى الكلمة للمرة الثانية صفعها! لم تكن صفعة غضب.. فهو لم يكن غاضبا .. فقط احس بأن عليه ان يضربها .. وتحقق ظنه المختبئ بعيدا فى عقله الباطن .. فقد تشبثت بكفه التى صفعتها.. ومسحت بها خدها ثم اراحت عليها شفتيها .. وعيناها التى انطبق جفناهما فى نصف اغماضة تهيمان فى غيمة لا تلبث ان تذوب فى دمعات متتالية ساخنة تحرق اديم يده..

- كم دفعوا لك؟..

من بين قبلاتها كان صوتها يلقى بعبارات برقية خاطفة ..

- عندى مال يشتريهم جميعا..

- اذاً فهو الانتقام؟

- لا احد يرفضنى ثم ينجو ..

.. مرت اصابعها تبحث حتى عثرت على سحابة سراوله فانتفض يدفعها بعيدا .. تعلقت بساقه فركلها .. هذه اللبؤة التى اشتهاها ذات مساء وأتاها فى الحلم .. بدت له الآن رخيصة مقرفة وكان عليه ان يسابق نفسه الى هناك ..

على صخر «بير مسعود» جلس القرفصاء باسطا ذراعيه على ركبتيه .. الشمس لم تعد هناك وآثارها الشفقية المحمرة ذابت فى ركام غيم ليلى زاحف.

.. آه لو استطاع ان ينام .. البحر عال .. لعله المد .. ولعله تيار عاصف يبشر بمقدم نوة مبكرة .. شيء ما اصاب انتظام الانتقال الفصلى .. فى مثل ايام مقابلة من العام الماضى واعوام قبله كان تشرين اكثر دفئا وكان يختزن الكثير من وهج الصيف الراحل..

آه لو ينام .. رذاذ الماء الفوار يدغدغ خديه وانفه فينبهه الى البلل القريب.. نهض واقفا وقد صدر بداخله قرار .. سأنهى كل شيء..

.. أيقظته شمس مبكرة فى حجرة البرج وأسلمته الى الضحى فى مكتب النيابة .. وضع الشريط المسجل امام الرجل الذى مزج البسمة بالتكشيرة فى اعتياد مهنى مدرب..

- استجابتك لمنطق العقل أنقذتك فى الوقت المناسب.

- تظن ان هذا الشريط سيدبج لك قضية تدوى احداثها وترفع من شأنك فى سلك العدالة، والقضاء؟ .. واين تفعل هذا؟ فى المريخ؟ خذ حذرك يا فارس الفرسان .. فهم ينتظرونك عند النواصى والزوايا وخلف منحنيات الدرج .. ربما تجد نفسك مدانا برشوة لم تطلبها أو مغتصبا لامرأة لم ترها .. أو ربما يفعلون بك مثل ما فعلوا بالشاهد الاول فى القضية .. الدكتور هانى الكردى..

سمعت طبعا عما فعلوه لينكلوا به؟

لم يهتز رجل النيابة ولم تغب ابتسامته .. فقط تلاشت تكشيرته..

- الدكتور صديقك لم يعد شاهدا يعتد به يا حضرة الصحفى .. انت لا تعرف اين هو الآن؟

...... اين؟ ..

- حولناه بالامس الى مستشفى الامراض النفسية بالمعمورة لوضعه تحت الملاحظة وموافاتنا بتقرير رسمى عن حالته..

.... لم يسمع يوسف كلمة واحدة من كلام حسن الغريب بعد الافراج عنه .. ولا انتبه لنصائح على الاحسن .. أو غمغمات سيد المرسى .. ولم تؤرقه نظرات العتب فى عينى باطة .. ولا زمجرات الاحتجاج على لسان راما..

تركز كل انتباهه فى همس الحاجة جازية بأذنه وهى تحتضنه..

- لا تتخل عنه فى محنته يا ولدى..

انتفض يحملق فيها .. ولكنها كانت قد استسلمت لنومها العميق..

خط يحيط العنق كالقلادة

فى ذلك الصباح من تشرين الثانى كانت الشمس غائبة .. وامطار نوة المكنسة تضرب زجاج النافذة العريضة فى حجرة البرج .. وراما تضع امامه صينية الافطار وجريدة الصباح ..

- فى الجريدة صورة لصديقك الذى كان يزورك هنا ..

من؟ .. فتح الجريدة وبحث حتى وجد الصورة والخبر ..

... الرجل الرقيق ..

فى حجرته بالمستشفى صحا فجرا .. وشنق نفسه بسلك المصباح .. وعبر غلالة دمع تترقرق من عينيه مع غلالة مطر على الزجاج .. توهجت ملامح فى ثنايا البرق الوامض خلف النافذة .. لاثنين .. فتى حنطى .. ورجل رقيق .. وكانا يتبسمان..

الفهرس

المؤلف فى سطور



اسامة انور عكاشة

● من أشهر كتاب الدراما التليفزيونية فى مصر والعالم العربى .
● بدأ رحلته الإبداعية بكتابة القصة القصيرة فى بداية الستينيات ونشر أعماله فى الدوريات الأدبية المصرية والعربية.
● كانت نقطة التحول الفنية عام ١٩٧٦ حين دخل مجال الدراما التليفزيونية ليقدم للمشاهد العربى اكثر من ٣٠ مسلسلا تليفزيونيا اهمها المشربية وأبواب المدينة ورحلة السيد أبو العلا البشرى والراية البيضاء وعصفور النار وضمير أبلة حكمت وليالى الحلمية (خمسة اجزاء) وأرابيسك وامرأة من زمن الحب وزيزينيا بالاضافة لعشرات السهرات الدرامية والاذاعية وبعض الافلام السينمائية
● من مؤلفات عكاشة القصصية والروائية والمسرحية خارج الدنيا ومقاطع من اغنية قديمة وأحلام فى برج بابل والناس اللى فى الثالث وليالى الحلمية والاسكندرانى واوراق مسافر وهمس البحر وبتاريخ خريف (نثر فنى) واخيرا منخفض الهند الموسمى (رواية) الصادرة عن كتاب «الجمهورية» بعد نشرها سلسلة فى العدد الاسبوعى منذ شهور .

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٣٤٩٠
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ - ٢٣٦ - ٣٣٧ - ٢